

الحراك العربي الراهن: نحو التحرر من هيمنة النظام الدولي

تمهيد: ساهم التدخل الغربي غداة تفكك الامبراطورية العثمانية في ابراز مجموعة من التحولات في المنطقة العربية. إذ عمدت القوى الاستعمارية الغربية "الاوربية" إلى تمزيق الوطن العربي وإعادة رسم حدوده، كما أن حقبة الحرب الباردة التي تلت زمنيا الحقبة الاستعمارية وشهدت تنافساً وتصارعاً بين المعسكرين أعادت تشكيل المنطقة بتقسيمها أقطارها ودويلاتها الفتية، إلى معسكرين، يتبع كل منها أحد معسكري الحرب الباردة.

غير أنه بإختيار الاتحاد السوفياتي وبروز نظام دولي جديد تقوده الولايات المتحدة الأمريكية، وتفرض من خلاله هيمنتها، تسلمت هذه الاخيرة (الولايات المتحدة) زمام الأمور في القضايا الإقليمية والداخلية للبلدان المنطقة، فإرضةً بذلك هيمنتها على المنطقة بإعتبارها اللاعب الأقوى في النظام الدولي الجديد.

لقد هيمنت الولايات المتحدة الامريكية على المنطقة، فرضت التبعية على دول المنطقة، حيث تكن تتحمل وجود أصوات رافضة لها، ولم تكن تدخر جهداً في تحريك جيوشها تحت أي طائلة لإسكات هذه الاصوات عبر حروب استباقية بأعدار ومبررات واهية. وهكذا تعاطم دورها، الذي أدى إلى تعميث الانقسامات الإقليمية في المنطقة، وزعزعة استقرارها، وتهديد دولها بمزيد من التفكك (نموذج السودان).

خلال هذه الفترة التي شهدت هيمنة وطمعاً أمريكياً في المنطقة، يكرس سطوة اسرائيل ككيان استعماري استيطاني احلالي، يستهدف الحقوق الوطنية العربية في فلسطين، ويزرع استقرار المنطقة من خلال جرائمه وانتهاكاته الجسيمة لحقوق الانسان، ولسيادة البلدان المجاورة له، كانت المنطقة تشهد بين الفينة والأخرى صعود "قادة" سياسيين رافضين لهذه الهيمنة، وللتبعية لواشنطن وحلفائها.

وفي الوقت الذي اختارت فيه الانظمة الحاكمة في الاقطار العربية القبول بالتبعية لواشنطن، فإن شعوب المنطقة ظلت رافضةً لهذه الهيمنة، باعتبار الولايات المتحدة ديكتاتورية دولية حامية للديكتاتوريات المحلية، رغم اعجاب الكثير من نخب ومثقفي هذه الشعوب بالماذج الديمقراطية الغربية. ظلت الشعوب العربية رافضة لها نظراً لمساندة الغرب المفضوحة لجرائم الاحتلال الاسرائيلي وتوفير الحماية الدولية له.

بنهاية سنة 2010 وفي الوقت الذي كان فيه العالم العربي يبدو فيه راكداً ومنقسماً وضائعاً، وفي الوقت الذي استمر فيه الحكام العرب في استرضاء الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الامريكية، وفي إثبات الولاء ونفي أي شبهة تحرر لنظامهم الاقليمي. في ظل هذه الاوضاع ظلت أولويات واشنطن مقتصرة على "الحرب على الارهاب"، وحماية اسرائيل وتدفق النفط، وكأنها غير معنية بما كان يجري على الأرض في دول المنطقة العربية.

وفي موقف يعبر عن عجزه وقف الغرب منفرجاً على سقوط أنظمة حليفة له تتساقط تباعاً، عاجزاً عن إنقاذها رغم محاولاته. الأمواج البشرية الشعبية التي كانت تملأ الميادين، وتسمع العالمين أن "الشعب يريد اسقاط النظام"، الولايات المتحدة الامريكية تعيد حساباتها التكتيكية. ولقد اضطرت الولايات المتحدة لتحافظ على نفوذها الدولي إلى التخلي سريعاً على أنظمة حليفة لها تاريخياً، بحيث ركبت الموجة مظهرهً نفسها مظهر الداعم لإرادة الشعوب، عبر تقديم مساعدات مالية واقتصادية، بغية الحفاظ على نفوذها بالمنطقة.

دراسة هذا الموضوع تستوجب التسليح بنموذج تفسيري ذاتي (عربي اسلامي) لمحاولة الفهم، وتفادي السقوط في المقاربات السطحية والصحافية من جهة؛ وعدم الانزلاق الى تبني أعمى للنماذج الغربية من جهة أخرى. هذا النموذج التفسيري يجب أن يستحضر الإرث والخبرة العربية الاسلامية في مواجهة الطغيان والتبعية. ولاشك أن تاريخ شعوب المنطقة العربية والاسلامية يزخر بهذه الحمولة، كيف لا وهو الذي له صولات وجولات في مواجهة الاستعمار.

مشكلة الدراسة: في ظل هذا السياق فإن السؤال المركزي الذي تسعى الدراسة إلى الاجابة عنه هو إلى أي حد سينجح الحراك العربي الراهن في مواجهة هيمنة النظام الدولي الجديد على المنطقة؟ وهل ستجح البلدان التي شهدت تغيرات سياسية على مستوى القمة في فك روابط التبعية للغرب؟

وفي ذات السياق يمكن إثارة اشكالات فرعية أخرى من قبيل:

كيف يمكن الاستفادة من الخبرة العربية في مواجهة الطغيان الدولي لبلورة نموذج تفسيري؟

كيف حاول الغرب بإعتباره القوة المهيمنة في النظام الدولي استشراف "الحراك العربي" والعمل من ثم على استيعابه، وتفريغه من محتواه **التركوي**، وذلك عبر طرحه لمبادرات "الاصلاح السياسي والدمقرطة" في المنطقة في ظل واقع التبعية الذي تزرع تحته؟

ثم كيف تعامل الغرب مع فجائية الحراك العربي وكيف تمكن من المرور من مرحلة "امتصاص الصدمة"، الى مرحلة المتدخل الفاعل لضمان استمرار الهيمنة؟

ثم كيف يمكن لأقطار الحراك مواجهة التبعية الاقتصادية، في ظل سعي غربي حثيث للامساك بها مجدداً من بوابة المساعدات الاقتصادية؟

لمحاولة الاجابة على هذه الاشكالات فإننا سنحاول سلك المسار البحثي الآتي:

خطة الدراسة:

المحور الأول: نحو نموذج تفسيري جديد:التقاليد العربية الاسلامية في مقاومة التبعية والطغيان

سنعتمد في دراسة هذا المحور على مجموعة من المراجع التي تناولت الخبرة العربية الاسلامية في مقاومة ومواجهة الطغيان الدولي، تاريخياً، وعلى رأس هذه المراجع دراسة للدكتور سعيد الحسن بعنوان "الخبرة العربية الحديثة في مقاومة الطغيان"، ثم كتاب "التحرر العربي". وما يهمننا فيه هو المقالة التمهيدية حول أولويات التدبر الاستراتيجي، إضافة إلى مذكرات عبد الوهاب لمسييري، رحلتي الفكرية في البذور والجدور والثمر، ودراسة لبرهان غليون، حول "الولادة الجديدة للعالم العربي"، ثم كتاب حامد ربيع، نظرية الأمن القومي العربي، وكذلك مقالة ف. غريغورغوز الثالث: "لماذا أغفلت دراسات الشرق الأوسط الربيع العربي؟ خرافة استقرار الأنظمة الاستبدادية".

المحور الثاني: المحاولات الغربية للحفاظ على الهيمنة: فلسفة الاصلاح والدمقرطة في ظل التبعية

وسيسفيد هذا المحور من دراسة "أفاق الاصلاح السياسي في العالم العربي" وهي عبارة عن تقرير منتدى المستقبل بالقاهرة يوليو 2010. إضافة إلى كتاب شحاتة صيام: "الفرعون والصراع الطبقي: من الدولة القائدة إلى الدولة التابعة"، ثم كتاب غالي شكري، الثورة المضادة في مصر، وكتاب عادل حسين، الاقتصاد المصري من الاستقلال الى التبعية. ثم كتاب جورج قرم، انفجار

المشرق العربي. إضافة الى كتاب مروان بشارة: "العربي الخفي وعود الثورات العربية ومخاطرها". والكتاب المشترك: "ثورات قلقلة: مقارنة سوسيو-استراتيجية للحراك العربي".

المحور الثالث: الغرب والحراك العربي: من الصدمة إلى التدخل: دراسة في النماذج

في دراستنا لهذا المحور سنسعى لمعرفة العلاقة بين بلدان الحراك والقوى الغربية الدولية، غداة سقوط الانظمة التابعة، من خلال التركيز على كتاب لويد سي. جاردنر: "مصر كما تريدها أمريكا: من صعود ناصر إلى سقوط مبارك". إضافة إلى بحث لنيل شهادة الجدارة في علم الاجتماع السياسي لاسامة علي محمد عبد القادر. "مقاربة الثورات العربية والمصالح الأجنبية"، نموذج سورية والبحرين. وكذلك مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير للباحث زردومي علاء الدين، حول التدخل الدولي ودوره في اسقاط نظام القذافي، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير. اضافة الى مقالة رضا مومني، حول "الربيع العربي ثوره أم مؤامرة".

المحور الرابع: أقطار الحراك والمساعدة الغربية: في سبيل الافلات من شبك التبعية.

خلال تناولنا لهذا المحور سنحاول الركون الى بعض المصادر ذات الطابع الاقتصادي، كمقالة عبد الحافظ الصاوي، "الخيارات الاقتصادية الصعبة لدول الربيع العربي"، و"كذا نحو نموذج للتنمية بدول الربيع العربي". ثم الدراسة المشتركة لسلمان شيخ، وشادي حميد، "بين التدخل والمساعدة: سياسة الدعم الدولي في مصر وتونس وليبيا". إضافة إلى دراسة محمد الحسين عبد المنعم، حول "الارتقاء للخارج: السياسات الاقتصادية (المتعثرة) في دول الربيع العربي". إلى جانب دراسة ابراهيم سيف، "المقاربة المطلوبة للتنمية بعد "الربيع العربي". كما سنحاول الاستفادة من دراسة الاستاذ جورج قرم، حول "المساعدات الاقتصادية لمصر وتونس: اصطيد الثورات بشباك التبعية".

توطئة: شكلت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعرفها الدول العربية، وانتشار الفساد والانكماش الاقتصادي وسوء الأحوال المعيشية إلى جانب عوامل أخرى لاندلاع الحراك العربي. تنضاف إلى ذلك عوامل الإحباط الشعبي مما أصاب الأمة العربية من ضعف وتجزئة. وتبعية شاملة للقوى الدولية، وتغليب للمصلحة القطرية على حساب المصالح العليا للأمة العربية ومقتضيات أمنها القومي. كما فشل الشعب العربي في التعامل مع مشاكله: فشل في تأمين ذاته من موجات الغزو والاحتلال، فشل في تحديد قدراته وتحرير مقدراته على التطور الاجتماعي من القيود المفروضة عليها؛ فشل في التعامل مع القوى الدولية خاصة الولايات المتحدة؛ وفشل في التعامل بين قياداته التي أنهكتها الصراعات العربية- العربية¹.

ولقد رأى الكثيرون في الحراك العربي ولادة جديدة للشعب العربي، "واستكمالا لحركات التحرر والبناء السياسي اللذين شهدتهما المجتمعات العربية منذ القرن الماضي، مع انهيار الدولة العثمانية أولاً، والتحرر من الوصاية الاستعمارية في مرحلة لاحقة ثانياً"²، في حين توسم فيها البعض "عروبة من نوع جديد"، هذه "العروبة الجديدة ستقوم في آخر المطاف بإعادة قضية السلام العربي الإسرائيلي إلى الواجهة"³.

مهما يكن من أمر، فإن الحراك العربي أفرز الحاجة إلى تضامن عربي أكثر من ذي قبل، واقتضى مفهوماً جديداً للأمن القومي العربي يأخذ بعين الاعتبار التحديات والإكراهات، ويطمح إلى كسب رهانات تفعيل العمل العربي المشترك في مواجهة القوى

¹ حامد ربيع، *نظرية الأمن القومي العربي*، دار الموقف العربي، القاهرة، 1984، صص: 7-8.

² برهان غليون، "الولادة الجديدة للعالم العربي"، *مجلة الدراسات الفلسطينية*، ع. 86، ربيع 2011، ص: 09.

³ غريغوريغوز الثالث، "لماذا أغفلت دراسات الشرق الأوسط الربيع العربي؟ خرافة استقرار الأنظمة الاستبدادية"، *مجلة المستقبل العربي*، ع 392، أكتوبر 2011، صص: 153-154.

الدولية والإقليمية، وتعزيز التكامل العربي المشترك في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بما يحقق العدالة الاجتماعية ويصون كرامة المواطن العربي.

المحور الأول: نحو نموذج تفسيري جديد: الخبرة العربية في مقاومة التبعية والطغيان.

تأبى الأمم الحرة أن تنتهك مقومات أمنها البشري أو الإقليمي أو الحضاري، وتبذل في سبيل صون تلك المقومات الغالي والنفيس. وبما أن الواقع العربي الراهن يتسم بالتجزئة والتفكك والتباس الرؤية، فإن الخروج من شرنقة التبعية والتخلف والإستبداد يستوجب تحديد أولويات التدبر الإستراتيجي العربي بما يضمن الأمن القومي العربي أولاً، وبما يسهم في إطلاق المقدرة العربية على التطور الإجماعي من القيود المفروضة عليها ثانياً. وفي مقدمة هذه الأولويات استثمار الخبرة التاريخية العربية كنموذج لمقاربة الواقع العربي الراهن، وكمطلق لبناء نموذج تفسيري لمقاربة الحراك العربي الراهن واشكالية التبعية للقوى الغربية.

لذلك تقتضي الضرورة المنهجية تبني مقاربة تفسيرية تقطع مع النماذج التفسيرية المغرقة في تبني النموذج الغربي الموغل في النزعة المركزية الأوروبية. هذه المقاربة تتجاوز الرصد المباشر للوقائع، لتقدم إحاطة شاملة وكلية بتركيبية الواقع والظاهرة الإنسانية. هذه المقاربة الإجهادية هي ما يسميه الدكتور عبد الوهاب المسيري بالنماذج التفسيرية. و"النموذج رؤية تصورية أو خريطة معرفية يجردها عقل الإنسان من الوقائع والأحداث التي تقع له، والظواهر التي يرصدها، والدراسات التي يقرؤها (...) بواسطة هذا النموذج والعناصر المختلفة المشكلة له ومختلف العلاقات القائمة بينها، يرصد الواقع ويفسره من خلالها"⁴. بناء هذا النموذج التفسيري يقتضي استثمار الخبرة العربية في مقاومة الطغيان كإطار منهجي لمقاربة إشكالية التبعية، ولتفسير عوامل التبدد الغربي للأمة العربية شعباً ووطناً، بشكل يسمح ببلورة آليات للنهوض العربي.

في هذا الإطار تأتي مقاربة الدكتور سعيد خالد الحسن في "الخبرة العربية في مقاومة التبعية والطغيان"، والتي تروم نقد الأسس المعرفية للنموذج التفسيري الغربي، وبناء نموذج معرفي يعبر عن الذات المجتمعية وخصوصيتها الحضارية. وتنطلق هذه المقاربة من استثمار الرصيد التاريخي للأمة المجتمعية العربية لبلورة رؤية جديدة للنظام الإقليمي العربي وسبل التحرر من الوصاية والتبعية. والصفة العربية هنا هي صفة تتجاوز المكونات القبلية والشعوبية، وتحيل إلى تكوين اجتماعي يتميز بثقافة جامعة. هذه "الثقافة المجتمعية الجامعة هي حصيلة تكوين اجتماعي تاريخي"⁵، يشكل الإسلام لحمتها. وبالتالي فالأمة العربية هي أمة الإسلام المجتمعية، وهي حصيلة تفاعل عناصر بشرية ومكانية واجتماعية وتاريخية، وتكوين مجتمعي يتجاوز تاريخياً مكوناته القبلية والشعوبية، كما أنه ليس امتداداً خاصاً لأحد هذه المكونات القبلية والشعوبية وإن وصف أحد هذه المكونات بأنه عربي. بل هو حصيلة تاريخية لكل مكوناته القبلية والشعوبية وما قد تعرفه من طوائف ونزعات فتوية؛ كما أنها حصيلة أكثر ارتقاءً وتطوراً من تلك المكونات⁶.

هذا المقرب النظري يروم إعادة التفكير في النظام الإقليمي العربي الراهن وتفكيك مفاهيمه بما يتيح أولاً "تجديد وإحياء نسق المدركات الجماعية للأمة العربية حول مرجعيتها (...) ثم الإنطلاق من هذه المدركات، ثانياً، لإعادة صياغة العلاقات الإقليمية القائمة بين أمصار الأمة وبما يشمل العلاقات التراحمية التي تقوم عليه مؤسساتها. وذلك بما، ثالثاً، يؤلف الإرادة الجماعية للأمة ويحقق لها نسيج علاقاتها المتراحم والمتكامل وظيفياً؛ وبما يحيي فكرها التمكيني رابعاً؛ لتمارس بإرادتها وفكرها رسالتها وتركيبها واقعها المشهود على كامل أرضها خامساً"⁷.

⁴ عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، منشورات الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة 2000، ص: 8.

⁵ سعيد الحسن (تحرير)، التحرر العربي والنظام الدولي، في ضوء التقرير الإستراتيجي العربي، مركز الدراسات والأبحاث مؤسسة خالد الحسن، 2010، الرباط، المملكة المغربية، ص: 30.

⁶ سعيد الحسن، التحرر العربي، م.س، صص: 32_34.

⁷ سعيد الحسن، "الخبرة العربية الحديثة في مقاومة الطغيان"، دراسة غير منشورة، ص: 1.

1. **تحرير حمل الأمانة:** الشعب يتحرك: أخفق النظام الإقليمي العربي في تعاطيه مع العديد من التحديات المتمثلة في تحقيق الوحدة وتجاوز واقع التجزئة، وتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية مشتركة بديلة للتخلف الإقتصادي والإجتماعي المعاش، والتحرر من أشكال التبعية للغرب، والتحرير الشامل من الإستعمار خاصة الإستيطان الصهيوني، وتحقيق الممانعة الثقافية بإحياء نسق المدركات الجماعية للأمة بدل الغزو الفكري الذي يستهدف الشخصية العربية الحضارية⁸. لذلك عملت حركة التحرر العربي منذ منتصف القرن التاسع عشر على التخلص من هذه القيود التي تعيق إطلاق المقدرة على التطور الإجتماعي والتزكية الإجتماعية.
2. **التحرر من الوصاية:** تغيير النظام: شكلت الحركات السلفية في التاريخ العربي محاولة أصيلة للتحرر من الوصاية الأجنبية من خلال توحيد جهود الأمة انطلاقاً من نسق مدركاتها الجماعية. وتندرج في هذا الإطار حركة الإصلاح والتجديد والمجاهدة المستميتة التي قادتها كل من الحركة الوهابية في الحجاز⁹، والحركة المهدية في السودان¹⁰، والحركة السنوسية في المغرب العربي¹¹. هذه الحركات التحررية حاولت التأصيل للسبل الكفيلة بتحقيق التحرر من الوصاية والاستعمار الأجنبيين، ذلك أن مواجهة قوى "الكفار" الإستعمارية تقتضي تمكين الجماعة، وتمكين الجماعة يقتضي وحدة إرادتها وقواها. كما ذهبت الثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسي في نفس المسعى، غير أن تشرذم قوة المدافعة العربية مكن القوى الإستعمارية الفرنسية البريطانية من بسط هيمنتها الكاملة على الوطن العربي.
3. **تغيير النخب: بناء النظام الجديد:** أمام عجز الخلافة العثمانية عن الإستجابة لمطامح الولايات العربية الواقعة تحت نفوذها المباشر منذ اواخر القرن الثامن عشر، وضعفها البين أمام أطماع القوى الأوروبية الإستعمارية، بدأت عمليات الإنسلاخ العربية عن الخلافة العثمانية. في مصر مثلاً "من محمد علي الى عرابي، الى مصطفى كامل، نجد باستمرار القناعة بضرورة تدارك عجز بنية الخلافة العثمانية عن تحقيق التطلعات التركوية ممتزجة بالإيمان بالإسلام كمنطلق للتزكية وبمصير مشترك يربط مصر بغيرها من الأمصار العربية"¹². غير أن مسعى التمكين أخفق في حقبة محمد علي، لافتقار جهده التعبوي للطابع الإسلامي الإصلاحية ولتطويق القوى الإستعمارية لمشروعه النهضوي. وستلي هذه الحقبة جهود لإحياء التمكين في مصر مع الثورة العراقية وجهود مصطفى كامل في تجديد المدركات السياسية للجماعة.
4. **التحرر من التبعية:** شكلت لحظة الإستعمار حالة من الوهن أصابت جسد الأمة العربية وأفسدت مسعى التمكين. وقد ظهرت حركات مقاومة في الكثير من الأقطار العربية حاولت رد هذا الغزو والتحرر من الهيمنة الأجنبية. وكانت أداتها الأساسية تعبئة الجماعة حول غاية واحدة مشتركة انطلاقاً من استلهاهم المشترك العقائدي للجماعة.
5. **قضية فلسطين: المدافعة العربية للصهيونية:** إن التمكين للأمة المجتمعية العربية غير ممكن عندما يتعرض جزء من الشعب العربي للإبادة أو الطرد من أرضه. لذلك تشكل قضية فلسطين مناط التحرر العربي، إذ أن تحرير أرض فلسطين عنوان لإطلاق مقدرة الأمة على تزكية ظروفها ومستقبلها، سواء مقدرتها المعنوية المتمثلة في وفائها لمدركاتها وتمثلها لوحدة مصيرها، أو مقدرتها العملية بتوظيفها لكامل مقدراتها في معركة بناء مستقبلها.

⁸ سعيد الحسن، الخبرة العربية، م.س، صص: 3-4.

⁹ سعيد الحسن، الخبرة العربية، م.س، صص: 10-15.

¹⁰ سعيد الحسن، الخبرة العربية، م.س، ص: 15.

¹¹ سعيد الحسن، الخبرة العربية، م.س، صص: 16-17.

¹² سعيد الحسن، الخبرة العربية، م.س، ص: 25.

وبالجملة، تتأسس مقاربة الدكتور سعيد الحسن في التحرر العربي من الطغيان والتبعية على تشريح الواقع العربي الراهن واستلهاهم الخبرة التاريخية العربية. والغاية من ذلك بناء تصور جديد للتحرر العربي يستند الى جهاز مفاهيمي يمثل الخبرة العربية في المقاومة والممانعة. ووفق ذات المنظور، يقتضي تجاوز إخفاقات النظام الإقليمي العربي الراهن، والتحرر من التبعية، آليتين أساسيتين:

- أ) درء معيقات التمكين، من قبيل التفرق الذي يفسد التمكين؛ والوهن (خذل عزة المؤمنين)؛ والفرقة (خذل ولاية المؤمنين)؛ ووهن قوى التمكين؛ أو غياب فكر التمكين أساساً.
- ب) التمكين أو بناء أدوات الصراع والمدافعة، وذلك من خلال التزكية العقائدية السياسية بما تقتضيه من تمثل لقيم الجماعة الروحية ومذكراتها الجماعية من جهة؛ وتعبئة الجماعة حول غاية واحدة مشتركة.

المحور الثاني: السعي الغربي للحفاظ على الهيمنة: فلسفة الاصلاح والدمقرطة لتكريس التبعية.

"يميل الأمريكيون في الحالة المصرية إلى إلزامية إجراء انتخابات أكثر انفتاحاً في 2005، وفي 2006 جعلوا إسرائيل في حيرة عندما حملوا حماس للاحتجاج على نتائج الانتخابات الفلسطينية في الأراضي المحتلة. وتم إقناع حتى السعوديين بإجراء نوع من الانتخابات المحلية شارك فيها الرجال فقط. كان أساس كل ذلك نظرية خاصة خلص إليها المحافظون الجدد، بعد أحداث 11 سبتمبر، ترى أن غياب الديمقراطية العربية هو السبب الأساسي للإرهاب"¹³.

Was George Bush right? –The Economist¹⁴

تعرف العلاقة بين الدول تدافعاً وصراعاً بغرض الهيمنة والسيطرة، وتتغير هذه العلاقة بتغير موازين القوى. وهكذا عاشت البلاد العربية طويلاً تحت رحمة القوى الكبرى الأكثر تصنيعاً والمتفوقة تقنياً، بسبب ضعفها وهوان قوى التمكين فيها وتحاذل قيادتها. لكن الهبات الشعبية التي عرفها الوطن العربي مطلع خمسينيات القرن الماضي فتح آمالاً عريضة لدى الشعب للتحرر من التبعية الأجنبية من بوابة الإطاحة بالأنظمة الموالية للإستعمار. غير أن حرص القوى الأجنبية على تثبيت مكاسبها قادها إلى ابتكار آليات جديدة من شأنها ترسيخ التبعية والاستغلال عبر تشجيع معيقات التمكين. ومن ضمنها تشجيع التفرق الذي يفسد التمكين بتأثيره على الأقليات في العالم العربي، وبإدخال مصر السادات في شبكة المصالح الأمريكية. كما عملت القوى الاستعمارية على تمويل مراكز للبحث بهدف نشر الأبحاث والدراسات المشككة في القيم الروحية للجماعة ومذكراتها الجماعية. وتنازلت المبادرات المهادنة إلى ديمقراطية العالم العربي وفق القيم الغربية التي رفعت إلى مرتبة الكونية. كل ذلك كان بغاية وحيدة ذات وجهين: تمكين النخب العربية الموالية للغرب ودعمها من جهة؛ وتأييد الهيمنة الأمريكية والغربية على مقدرات الوطن العربي من جهة ثانية.

¹³ النص الأصلي:

«The Americans leant on Egypt to hold more open elections in 2005, and in 2006 they talked an astonished Israel into letting Hamas contest Palestinian elections in the occupied territories. Even the Saudis were prevailed on to hold some (men only) local elections. All this was based on a particular theory, the post-9/11 neoconservative conclusion that the root cause of terrorism was the absence of Arab democracy».

¹⁴ Sur lien, "Was George Bush right?" (The Economist, Feb 3rd 2011):

http://www.economist.com/node/18063852?story_id=18063852

1. سياسة الانفتاح: في تاريخ العودة الى التبعية: إن واقع التبعية الذي عاشته الدول العربية لم يكن وليد لحظة، ولم يأت بين عشية وضحاها، بل هو نتاج لعملية تاريخية امتدت من منتصف الستينات، وبعد نكسة 1967 في اطار الصراع العربي الاسرائيلي، وما رافق هذه المحطة التاريخية من تفسخ للكتلة الحاكمة وانحيار للمؤسسات السياسية والعسكرية، وبروز دعوات الى اعتماد طريق التطور الرأسمالي التقليدي من داخل القيادات، كما هو الحال للنموذج المصري، وما رافق هذه الدعوات من تعديل للسياسات الاقتصادية وايلاء القطاع الخاص المزيد من الأهمية¹⁵.

في مصر باعتبارها قلب "العالم العربي"، شهدت سنة 1971 حدثاً مفصلياً، يتعلق بوصول انور السادات الى السلطة، بدعم من اليمين المعادي للناصرية، والذي كشف عن نواياه من خلال شعارات ما سمي بـ"تصحيح ثورة يوليو" والدعوة الى تصفية كافة المنجزات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للناصرية، ما أدى الى فقدان الاستقلال الاقتصادي بالانفتاح على الغرب¹⁶.

لقد كانت الردة وتصفية الارث الناصري، خاصة في ما يتعلق بسياسات التأميم الاقتصادية في عهد انور السادات، بمثابة ثورة مضادة لا ضد الناصرية فقط، بل هي ثورة عالمية مضادة للعرب في مصر¹⁷، وضرب لكافة القوى التحررية في المنطقة، وعودة الى الارتقاء في احضان التبعية الاقتصادية للغرب. وقد بينت الأرقام والاحصائيات حجم الديون والمساعدات المالية والاقتصادية الخارجية لمصر في مابعد نهج سياسة الانفتاح. باختصار لقد انتقلت مصر السادات من اقتصاد مستقل الى اقتصاد تابع¹⁸.

عبر مثل تلك الأرقام والاحصائيات يمكن رصد واقع سقوط البلدان العربية في حضن التبعية، غير أن هناك جوانب اخرى تتعلق بالإرث الاستعماري الذي خضعت له هذه البلدان، واستقلالاتها الشكلية، وهي في الغالب معروفة لدى الكثير من الدارسين؛ غير أن التجربة المصرية بما حققتها من خطوات في اتجاه تحقيق استقلالية اقتصادية، والردة التي شهدتها بعد ذلك تستحق تخصيصها بكثير من الاهتمام.

غير أن دراسة تاريخ التبعية وتطورها في المنطقة على الرغم من أهميته، أمر قد لا يسعه هذا المجال¹⁹، ثم أنه ليس قضيتنا الأساس، فما يهم الباحث هذا هنا كيف حاولت القوى الغربية الحفاظ على هيمنتها وفرض التبعية على بلدان المنطقة العربية، عبر دعم أنظمة استبدادية ضداً على ارادة شعوب المنطقة، رغم تعبير هذه الأخيرة عن رفضها لهذا الواقع.

2. نشر الديمقراطية ودعم حلفاء الحرب على الارهاب: بالعودة إلى الفقرة التي افتتحنا بها هذا المحور والمقتبسة من مقال نشر في صحيفة "Economist" والمعنون بـ "هل كان جورج بوش على صواب؟"، نجدتها تتحدث عن ضغط امريكي على مصر لإجراء انتخابات أكثر انفتاحاً سنة 2005، وكذلك اقناع إسرائيل بضرورة السماح بمنافسة حركة حماس في انتخابات التي جرت في الاراضي الفلسطينية المحتلة، ومحاوله اقناع السعوديين بإجراء نوع من الانتخابات المحلية.

قد يفهم البعض أن دعوات الغرب هذه للأنظمة العربية التابعة، ومحاولاته اقناعها ببعض الاصلاحات، كان استشرافاً للغرب بنفاذ صبر الشارع العربي وقرب انتفاضته. غير أن الأمر لم يكن كذلك على ما يبدو. بل إن هذه الدعوات أتت في اطار ارتدادات

¹⁵ شحاتة صيام، *الفرعون والصراع الطبقي: من الدولة القائدة إلى الدولة التابعة*، مصر العربية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2013، ص: 161.

¹⁶ شحاتة صيام، مرجع سابق، ص: 162.

¹⁷ غالي شكري، *الثورة المضادة في مصر*، كتاب الأهالي رقم 15، سبتمبر 1987، ص: 391.

¹⁸ راجع بهذا الصدد للمزيد من التفصيل: عادل حسين، *الاقتصاد المصري من الاستقلال الى التبعية*.

¹⁹ راجع بهذا الصدد حول مراحل تطور الهيمنة المريكية، جورج فرم، *انفجار المشرق العربي*.

أحداث 11 من سبتمبر 2001. وفي هذا الصدد يقول الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن أن "الحفاظ على الحرية في أراضينا يتوقف على نجاح الحرية في البلاد الأخرى"²⁰.

هكذا تبين على الأرض انه لم يكن لما سبق من دعوات معنى، بحيث أن الانتخابات المصرية لسنة 2005 كانت مزورة، كما اعتقل أغلب برلمانيي حركة حماس وأطيح بحكومتها، ناهيك عن كون الانتخابات السعودية كانت بعيدة كل البعد عن السياسة باعتبارها انتخابات بلدية ضيقة. وتبين أيضاً كيف أختار الغرب تطبيق الديمقراطية بأسلوب آخر، في البلدان التي كانت في قبضة انظمة ترفض الانصياع لهيمنتها، كما حصل مع النموذج العراقي²¹.

في الوقت الذي دمرت فيه امريكا العراق شر تدمير بهدف "نشر الديمقراطية"، كانت هي نفسها من توزع الشاء والتزكية على أنظمة عربية استبدادية، وتصنفها بالأنظمة الحليفة، وتضمن إنجازاتها "الديمقراطية"، وهو ما عبر عنه الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن، بمناسبة زيارة الرئيس التونسي -المهارب لاحقاً من ثورة الحراك- زين العابدين بنعلي للبيت الأبيض سنة 2004، بالقول أن ضيفه (اي بنعلي) حليف في الحرب على الإرهاب، ويتحقق دوره في "تطور الحريات" في تونس، بسبب "نزاهة" انتخاباتها وغيرها من الاصلاحات السياسية، والتي جعلت واشنطن تعتبر تونس قادرة على قيادة الشرق الأوسط²².

لقد تهافت الانظمة العربية الموالية للغرب على مباركة الحرب الشعواء التي يشنها الغرب ضد "الارهاب"، وعبرت عن انخراطها في هذه الحرب مقابل التخفيف من ضغوط الديمقراطية. والواقع ان هذه الانظمة قد استغلت ما سمي بالحرب على الارهاب لمزيد من الاستبداد والقمع، في ظل مباركة "الغرب"، وتراجع اهتمامه بدمقرطة المنطقة خاصة بعد فشل تجارب نشر الحرية والديمقراطية عن طريق القوة، الذي كان في الواقع نشراً للخراب و"الفوضى الخلاقة" بتعبير المحافظين الجدد.

6. **أوباما: التهدة البراغمية:** بناءً على ما سبق، كان من الطبيعي أن يتصاعد العداء ضد الغرب، نتيجة السياسات الكارثية التي نعتها إدارة بوش. وقد حاول خلفه باراك أوباما أن يتجاوز هذا الارث الكارثي، المتسم بتصاعد العداء لأمريكا والغرب، في المنطقة العربية والاسلامية، وصرح في أولى خطابه أن من بين أهدافه في السياسة الخارجية إطلاق ما سماه "بداية جديدة" مع العالم الاسلامي.

وفي هذا الصدد، عقد أوباما لقاءً صحفياً مبكراً مع قناة العربية وعد فيه بأن الولايات المتحدة سوف تتبنى نهجاً جديداً في المنطقة يقوم على المصالح المشتركة والاحترام المتبادل. كما ألقى أيضاً الرئيس أوباما خطاباً في مدينة أنقرة، أكد فيه على الاهتمامات، والقيم، والتاريخ الذي يربط بين البلدين؛ وألقى خطاباً آخر في مدينة القاهرة، أبدى فيه احترامه للمسلمين وتفهم مخاوفهم. الأمر الذي جعل خطاب القاهرة خطاباً استثنائياً هو أنه قد احتار ألا يوجه خطابه إلى الحكومة المصرية، ولكن إلى الشعوب التي تستمع إليه في شتى أنحاء العالم²³.

²⁰ Bush's inauguration speech, Full text, theguardian.com, Thursday 20 January 2005. Sur lien:

<http://www.theguardian.com/world/2005/jan/20/uselections2004.usa>

²¹ مروان بشارة، العربي الخفي وعود الثورات العربية ومخاطرها، ترجمة موسى الحلال، الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت، ومركز الجزيرة للدراسات- الدوحة، الطبعة الأولى، 2013، ص: 149.

²² راجع تصريحات الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن، بمناسبة زيارة الرئيس التونسي لواشنطن بتاريخ: 18 فبراير 2004. على موقع وزارة الخارجية الأمريكية على الرابط التالي: <http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2004/03/20040309153329liameruoy0.5659906.html>

²³ اندرو ألبرتسون، "سياسات الولايات المتحدة الأمريكية تجاه تعزيز الديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم العربي"، بحث ضمن كتاب أفاق الاصلاح السياسي في العالم العربي، مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان، سلسلة قضايا الاصلاح (26)، القاهرة، يوليو 2010، ص: 118.

لقد أثنى أوباما "البراغماتي" في زيارته للرياض على ما وصفه بحكمة العاهل السعودي، وكرم اخلاقه، كما فعل الأمر ذاته في زيارته إلى القاهرة ووصف الرئيس المصري السابق حسني مبارك بالخليف القوي، بمقابل هذا الدعم للأنظمة الحاكمة، فإن إدارة أوباما قامت بخفض المخصصات التي تقررها لدعم المنظمات غير الحكومية في العالم العربي، متخلياً بذلك عن صورتها كداعم للديمقراطية في المنطقة²⁴.

ان القضايا التي برزت في خطابات أوباما سقطت من الاهتمام ما ان انتقلت من الخطابة إلى الممارسة. والحقيقة هي أن التركيز المهم للإدارة بشأن تحديد العلاقات مع البلدان ذات الأغلبية الإسلامية قد تم إسكاته كذلك، وتمت العودة إلى ذات الأولويات القديمة لذات الحكومات القديمة، انسجماً مع "ثوابت" الإدارة الأمريكية وافترضاها الأيديولوجية²⁵. وعلى الرغم من كون الإدارة الأمريكية قد حققت على نحو هامشي المزيد من التعاون من جانب الانظمة العربية في مجالات السياسة الرئيسية، غير ان هذا السلوك اظهر سياسات الولايات المتحدة وكأنها لم يطرأ عليها تحسن، بل على العكس، فقد ساءت منذ بداية تلك الإدارة. إذ يبدو أن استثماراتها في التنمية لها آثار مختلطة في غياب الإصلاحات الأخرى. وأخيراً، فإن الدبلوماسية الخاصة بالإدارة قد دعمت مبدأ تفوق الدولة وسيادتها في منطقة هي في أمس الحاجة إلى تطوير أفكار المواطنة، وسيادة القانون واستقلال المجتمع المدني²⁶.

هكذا شكلت خطابات أوباما الثلاث الكبرى والموجهة إلى العالم الإسلامي، علامة فارقة ودليل على استعداد أمريكا لفتح صفحة جديدة في علاقاتها مع العالم الإسلامي قائمة على "المصالح المشتركة والاحترام المتبادل"، غير أن واقع الأمر غير ذلك، حيث ان إدارة أوباما كانت منهمكة في سياستها البراغماتية مع الطغاة العرب على أمل أن تضمن مزيداً من التعاون الإقليمي²⁷.

7. أوروبا براغماتية أيضاً: "اسبانيا لديها المغرب، وفرنسا لديها تونس، ونحن لدينا ليبيا، وغيرنا له حضور أكبر في مصر"²⁸ بهذه العبارة عبر رئيس مجلس الشيوخ الإيطالي "ريناتو سكيفاني"، عن تقسيم الكعكة بين الدول الأوروبية، وعن فرض التبعية عن مستعمراتها السابقة، خاصة من الناحية الاقتصادية، عبر الحفاظ على أنظمة موالية لها تضمن لها استمرار هذه التبعية، وما يرافقها من امتيازات اقتصادية.

بهذا لم تكن الدول الأوروبية لتشد على التوجه الأمريكي المتسم بالبراغماتية، فهي أيضاً وضعت وراء ظهرها المبادئ الديمقراطية التي ظلت تغني بها، ودعمت وأثنت على أنظمة عربية استبدادية، لتضمن تبعيتها. وعلى درب البراغماتية الأمريكية، فإن العودة إلى أحداث السنوات والأشهر التي سبقت انطلاقة الحراك العربي، ستكشف حجم المجاملات والثناء الذي كانت هذه القوى الأوروبية تغذقه على هذه الأنظمة التابعة.

بالعودة الى سنة 2008 وعلى الرغم من الانتهاكات الحقوقية التي سجلت في تونس والتي وثقتها التقارير الحقوقية الدولية²⁹، فإن الرئيس الفرنسي آنذاك "نيكولا ساركوزي" أثنى على ما أسماه "تحسن مجال الحريات" في تونس، وهو ما اعتبره البعض تنكراً لما تمثله

²⁴ مروان بشار، مرجع سابق، ص: 151.

²⁵ راجع بهذا الصدد، عبد الله بوحبيب، كيف تعامل العقل الأمريكي مع الثورات العربية؟ في الكتاب المشترك: ثورات قلقة: مقارنة سوسيو استراتيجية، للحراك العربي، تحرير محمود حيدر، منشورات مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 2012، بيروت لبنان، ص: 161.

²⁶ اندرو ألبرتسون، مرجع سابق، ص: 119.

²⁷ مروان بشار، م، ص: 151.

²⁸ أورده مروان بشار، م، ص: 154.

²⁹ شهدت بلدة الدرافيف المنجمية في جنوب تونس احتجاجات، اعتقل على إثرها أزيد من 200 شخص، أنظر للمزيد حول الانتهاكات الحقوقية التي عرفتها تونس سنة 2008،

تقرير: (Human Rights Watch, World Report 2010 – Tunisia).

sur lien: <http://www.refworld.org/cgi-bin/texis/vtx/rwmain?docid=4b586cdd7b>

فرنسا من رمزية في مجال حقوق الانسان، غير ان كون فرنسا اول شريك تجاري لتونس، جعلتها تنفي على ادائه الاقتصادي وهي تنتقد ادائه الحقوقي³⁰.

ما ينطبق على الرئيس الفرنسي السابق في حالة تونس، ينطبق على حالة رئيس الوزراء البريطاني السابق "توني بلير" في حالة ليبيا، حين أخرج نظام معمر القذافي من عزلة ديبلوماسية سنة 2003، وما ينطبق على "بلير" و"ساركوزي" قد يكون مضاعفاً في حالة رئيس الوزراء الايطالي "سيرجيو بيلسكوني" الذي احتضن نظام القذافي ودعمه و"تبجح" بكون أهم إنجازاته في السياسة الخارجية يكمن في معاهدة الصداقة مع ليبيا³¹.

في مقابل هذا الدعم والاحتضان الذي خصت به القوى الأوروبية الأنظمة العربية التسلطية، تراجع الدعم والاهتمام بمجال نشر الديمقراطية، وحقوق الانسان، هذا التراجع ارتبط بالبيئة الدولية المتغيرة على مدار العقد الماضي، والأزمة الاقتصادية التي أدت الى تركيز صنع السياسات على الداخل، كما أسقط عبء الجانب الشرطي (القاضي باحترام حقوق الانسان) من الاتفاقيات التجارية، نتيجة بروز قوى اقليمية جديدة "غير ديمقراطية"، والتي تمثل شركاء بدلاء للأنظمة السلطوية لتحقيق مصالحها الاقتصادية³².

8. ما الخلاصات؟ لقد ظلت الرؤى الغربية للمنطقة العربية متشابهة ومتطابقة الى أبعد الحدود. فالولايات المتحدة الأمريكية رأت في المنطقة "شرقاً أوسطاً جديداً"، يقوم فيه الكيان الاسرائيلي بدور قيادي، على الرغم من اللاتوازن الديمغرافي. كيف يمكن لكيان من حوالي 7 ملايين نسمة، ان يقود منطقة ذات وزن ديمغرافي يفوق 300 مليون نسمة. القوى الأوروبية بدورها كانت تنظر إلى المنطقة من منظار الشراكة الأوروبية – المتوسطية، وعلى اساس مسلسل برشلونة 1995، ثم بعد ذلك مشروع الرئيس الفرنسي (السابق) نيكولا ساركوزي، تحت شعار "الاتحاد من اجل المتوسط" سنة 2008، بغرض ادماج اسرائيل ومنحها الريادة في منظومة اقليمية.

إن الشغل الشاغل للغرب في علاقته مع المنطقة العربية الاسلامية، هو حماية مصالحه الاقتصادية، وأمن الكيان الاسرائيلي. إذ على الرغم من تدخل الغرب في قضايا المنطقة، فإنه لم يهتم بشكل جدي بأوضاع الشعوب العربية وظلت مغيبة عن سياساته. وعلى الرغم من التغيي بالديمقراطية وحقوق الانسان إلا ان الغرب ظل يعتبر أن "النظام العربي الجيد هو الحليف الخانع والشريك المزود بالطاقة بغض النظر عن حكمه الاستبدادي والثيوقراطي"³³.

من المؤشرات التي يمكن ان نسوقها على زيف الادعاءات الغربية حول نشر الديمقراطية، ودعم الاصلاحات وحقوق الانسان، كون هذه الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، رفضت نتائج مجموعة من الانتخابات التي شهدت هي نفسها بنزاهتها. ببساطة لأنها حملت تيارات لا تريدها الى الحكم. إن نماذج الجبهة الاسلامية في الجزائر، وحركة المقاومة الاسلامية "حماس" في الاراضي الفلسطينية المحتلة، كافية لفضح براغماتية الغرب.

في ظل هذا الوضع المتسم بتعامل غربي على اساس برغماتي، قائم على التغيي بشعارات الديمقراطية وحقوق الانسان من جهة، ودعم انظمة استبدادية سلطوية تضمن له دوام هيمنته على المنطقة من جهة اخرى، كان من الممكن استمرار الهيمنة الغربية

³⁰ مروان بشارة، م.س، ص: 153.

³¹ مروان بشارة، م.س، ص: 154.

³² كريستينا كوتش، "المصالح الأوروبية والإصلاح السياسي في الشرق الأوسط وشمال افريقيا"، بحث ضمن كتاب أفاق الاصلاح السياسي في العالم العربي، مرجع سابق، ص: 107.

³³ مروان بشارة، م.س، ص: 156.

باعتبارها رهينة باستمرار انظمة تابعة وخاضعة له. كان من الطبيعي أن يتصاعد الرفض والعداء ضد هذا الغرب وهيمنته، وضد تلك الأنظمة وتبعيتها، وما نتج عنها من اوضاع اقتصادية واجتماعية مزرية. هكذا انطلقت شرارة الرفض العربي من بلد أغدق عليه الغرب الثناء، بإعتباره ينعم بالحرية وحقوق الانسان وذو اقتصاد قوي. غير أن الشاب التونسي محمد البوعزيزي، كان له رأي آخر في بلده، رأي جعله يشعل فتيل نيران في جسده إمتدت لتأتي على عروش أنظمة سلطوية طال عمرها.

المحور الثالث: الغرب والحراك العربي: من الصدمة إلى التدخل: دراسة في النماذج.

"وقد ركزت الثورات العربية التي اشتعلت شرارتها الأولى في تونس العام الماضي على الفساد والفقر وانعدام الحريات، وليس على الهيمنة الغربية أو الاحتلال الإسرائيلي. ولكن حقيقة انطلاقهم ضد الديكتاتوريات المدعومة من الغرب تعني أنهم شكلوا تهديداً فعلياً للنظام الإستراتيجي"³⁴. Seumas Milne; The guardian.³⁵

رغم كل مراكز الأبحاث ومجامع التفكير التي يجبل بها الغرب المتقدم، والمختص جزء مهم منها في قضايا الوطن العربي، فلا أحد توقع ما حدث. لم يدر بخلد أحد أن واقعة انتحار الشاب التونسي محمد البوعزيزي حرقاً، ستولد حراكاً شعبياً عارماً دك أسوار الكثير من القادة المخدلين. هذا الحراك العربي ذي النفس الواحد وجد أرضاً خصبةً للتشكل تمثلت أساساً في تجذر قوى التمكين التي تمثلت قيم الجماعة الروحية، واستطاعت تعبئة الجماعة حول غاية واحدة مشتركة. هذا المعطى هو الذي ضاعف من صدمة القوى الغربية والنخب العربية المدجنة التابعة التي رأت في الحراك العربي تهديداً لمصالحها ومكتسباتها. لذلك تحركت قوى الردة والنكوص مسنودة من الغرب الإستعماري لعرقلة التطورات التحررية المشروعة للإنسان العربي، مستعملة في ذلك شتى الوسائل: المال والإعلام والإشاعة وغيرها... ولم يكتف الغرب بذلك بل تحرك لامتصاص صدمة الحراك بالبحث عن قوى بديلة للقوى الفاعلة في الحراك، والحيلولة دون تجذر فكر التمكين وقواه كما في الحالة المصرية، أو في التدخل المباشر لضمان "تغيير" وانتقال يحمي مصالحها كما في الحالتين الليبية والبحرينية.

1. الغرب: من امتصاص الصدمة إلى البحث عن البدائل. (مصر نموذجاً): يعترف الصحفي البريطاني Seumas-Milne³⁶، بأن الثورات العربية حينما انطلقت لم يكن هدفها الأساسي مواجهة الهيمنة الغربية بشكل مباشر، غير أنهم باستهدافهم أنظمة وحكام موالين وتابعين للغرب فهم يشكلون تهديداً فعلياً واستراتيجياً لهذه الهيمنة، وهو بهذه العبارة يلخص قضية الحراك العربي والهيمنة الغربية بعبارات دقيقة، فصحيح أن الجموع الشعبية التي خرجت الى الميادين والشوارع لم تهتف بسقوط الهيمنة الأمريكية والغربية، ولا حتى بزوال اسرائيل، لكنها هتفت بسقوط الانظمة المستبدة والفسادة التابعة للغرب.

من الطبيعي جداً أن سقوط هذه الأنظمة يعني احتمال تآكل الهيمنة الغربية، ومن الطبيعي كذلك أن يبحث هذا الغرب المهيمن على حلول لهذا الواقع الجديد، فبعدما تأكد أنه من الصعب بل ومن المستحيل في بعض الأحيان الوقوف في وجه الفيضان

³⁴ النص الأصلي:

«The Arab uprisings that erupted in Tunisia a year ago have focused on corruption, poverty and lack of freedom, rather than western domination or Israeli occupation. But the fact that they kicked off against western-backed dictatorships meant they posed an immediate threat to the strategic order».

³⁵ theguardian.com, Monday 19 December 2011, sur lien:

<http://www.theguardian.com/commentisfree/2011/dec/19/arab-spring-seven-lessons-from-history>

³⁶ سيوماس ميلن (من مواليد 1958) هو صحفي والكاتب البريطاني المعروف بأرائه اليسارية. محرر عمود صحفي ومساعد في صحيفة الجارديان البريطانية، مؤلف مجموعة من الكتب حول إضراب عمال المناجم البريطانية 1984، والعدو من الداخل: الحرب السرية ضد عمال المناجم... إلخ.

الشعبي، وبعد محاولاته اليائسة للتمسك ومساعدة هذه الأنظمة التي تهاوت، سرعان ما تخلّى عنها وحاول البحث عن بدائل جدد.

رغم أهمية الحدث "الإنتلاقي" التونسي، فإن المحطة المصرية في مسار الحراك العربي، تبدوا أكثر أهمية لتوضيح كيف حاول الغرب امتصاص صدمة الحراك العربي، عبر محاولة التمسك بنظام مبارك، ثم بعده مباركة تمسك المصريين بمطالبهم. هذه الأهمية التي تكتسيها المحطة المصرية هي موازية للأهمية التي تمثلها الدولة المصرية، في المنطقة نظراً لوزنها الديمغرافي وموقعها الاستراتيجي وغيره من عناصر التي تجعل منها قلب المنطقة ومن ثم محطة الإهتمام الأكبر من القوى الغربية.

لقد عبرت الولايات المتحدة الأمريكية في بداية الحراك المصري عن تمسكها بنظام مبارك، حيث صرحت مستشارة الرئيس الأمريكي في الشؤون الخارجية في 25 يناير 2011، أن "تقديرنا هو أن الحكومة المصرية مستقرة وتبحث عن سبل للاستجابة لحاجات الشعب المصري ومصالحه المشروعة"³⁷، ثم تلى هذا التصريح اتصال الرئيس الأمريكي "باراك أوباما" بنظريته المصري "حسني مبارك" ودعوته له بعدم اللجوء إلى العنف، ثم بعده تشجيع نائب الرئيس الأمريكي "جون بايدن" للحل السلمي، ثم اتصالات وزير الدفاع الأمريكي "روبرت جيتس" ورئيس الأركان العامة "مايك مولن" بنظريتهما في مصر بغرض معرفة موقف المؤسسة العسكرية المصرية في ما يحدث من حراك³⁸.

في الوقت الذي ركزت فيه الإدارة الأمريكية على ضرورة الإبقاء على الروابط والاتصال مع المؤسسة العسكرية المصرية، عبر حلفاء الولايات المتحدة في المنطقة وعلى رأسها الكيان الإسرائيلي والمملكة العربية السعودية، عن انزعاجهم من التخلي الأمريكي على حليف بوزن نظام حسني مبارك، ما يمثله من أهمية في المنطقة، غير أن الإدارة الأمريكية كان لها رأي آخر، هو ضرورة تحيين الارتباطات والأجندات مع الواقع الجديد، بعدما بات الرهان على نظام مبارك غير مجدي.

لقد عبرت "هيلاري كلينتون" على هذا التحول السريع في الإدارة الأمريكية، حيث قامت بزيارة إلى القاهرة بعد سقوط مبارك، زارت خلالها ميدان التحرير وقالت "انها تجربة استثنائية بالنسبة لي أن أرى البقعة التي حدثت فيها الثورة بكل ما تعنيه بالنسبة للعالم"³⁹، هذا التحول يمكن تفسيره بكونه محاولة للبحث عن موطئ قدم في مصر "الجديدة"، والحيلولة دون فقدان نفوذ تقليدي في هذا البلد المحوري.

³⁷ أرشيف جريدة الأهرام المصرية، على الرابط التالي: <http://gate.ahram.org.eg/UI/NewsContentPrint/13/71/35655.aspx>

³⁸ لويد سي. جاردنر، مصر كما ترينها أمريكا: من صعود ناصر إلى سقوط مبارك، ترجمة فاطمة نصر، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر 2013)، ص 9

³⁹ أورده، لويد سي. جاردنر، مرجع سابق، ص 8.

2. الغرب: في مرحلة المتدخل الفاعل.

أ. التدخل من أجل دعم التغيير (ليبيا نموذجاً): لقد استوعب الغرب بشكل سريع التحولات التي تمر بها المنطقة العربية، وغير أسلوب تعامله معها، فبدأ يبلور سياساته للمرحلة، مبنية أساساً على الظهور بمظهر الداعم لهذا الحراك، فنجد مجموعة من القادة الغربيين يصرحون بوقوفهم إلى جانب ارادة الشعوب في المنطقة، وفي هذا الصدد صرحت "هيلاري كلينتون" في خطاب القته امام المنتدى العالمي الأمريكي الاسلامي، أن "الولايات المتحدة تلتزم بمساندة شعبي مصر تونس فيما هم يعملون على اقامة نظم ديمقراطية تأتي بنتائج ملموسة لكل المواطنين، وأيضا بدعم طموحات الشعوب في أنحاء المنطقة. وفي هذا تلتقي قيمنا مع مصالحنا..."⁴⁰.

لقد عبرت "كلينتون" عن انتقال الولايات المتحدة من وضعية الصدمة والبحث عن بديل لأنظمة الحليفة التي سقطت، إلى مرحلة التدخل الفاعل بالمساندة والدعم، وقد وضحت هذه المرحلة في المخططات التي تلت محطتي تونس ومصر من مسار الحراك بشكل جلي، خاصة في الخطة الليبية التي كانت محطة فارقة في مسار الحراك عرفت تحول الحراك من الطابع السلمي إلى الطابع العنيف⁴¹. وهو الأمر الذي شكل مبرراً لتدخل غربي "دولي" للإطاحة بالنظام الليبي.

لقد دخل الغرب على خط الحراك الليبي من بوابة الانتهاكات الجسيمة لحقوق الانسان التي يقترفها نظام القذافي في حق المدنيين العزل، حيث اتخذ مجلس الأمن الدولي بالإجماع قرار 1970 في 26 فبراير 2011 حول الأوضاع في ليبيا، وبموجب نظام روما المنشئ للمحكمة الجنائية الدولية وتحت أحكام الفصل السابع من ميثاق المجلس، فرض عقوبات دولية على نظام معمر القذافي وفوض المحكمة الجنائية الدولية بالتحقيق في الجرائم التي إقترفتها قوات القذافي ضد المدنيين الليبيين.

على إثر عدم إستجابة السلطات الليبية لقرار مجلس الأمن السابق ذكره، وتدهور الأوضاع الأمنية والإنسانية في ليبيا والخسائر الفادحة في صفوف المدنيين، ما اعتبر تهديداً للأمن والسلم الدوليين ما استدعى استصدار قرار جديد من مجلس الأمن الدولي تحت رقم 1973 في 17 مارس 2011، يفرض مجموعة من العقوبات، وعلى رأسها حظراً جواً على الأجواء الليبية، تتولى الدول الأعضاء تنفيذه بتنسيق مع جامعة الدول العربية⁴². لقد كان هذا القرار بمثابة الشرارة الأولى للتدخل الدولي في ليبيا تحت لواء الحلف الأطلسي (NATO)، إذ تداعت الدول الغربية وبعض حليفاتها العربية لتنفيذ القرار، وبدأت العمليات فعلياً في 19 مارس 2011⁴³.

استمر القتال في ليبيا بين كتائب القذافي، ومسلحي المعارضة المدعومين من قبل حلف الناتو⁴⁴، لأشهر عديدة لينتهي بسقوط نظام القذافي ومقتل العقيد معمر القذافي في 20/10/2011، الذي أعقبه اعلان تحرير ليبيا من طرف المجلس الوطني الإنتقالي في

⁴⁰ أورده، لويد سي. جاردنر، م، س، ص: 249.

⁴¹ على الرغم من حضور ممارسة اشكال مختلفة من العنف في التجريبتين التونسية والمصرية، إلا ان الحراك فيهما احتفظ في عمومهما على طابع الاحتجاج السلمي، في حين ان النموذج الليبي اخذ فيه الحراك مسار المواجهة بعد العنف والقوة المفرطة التي واجه بها النظام الاحتجاجات السلمية.

⁴² زردومي علاء الدين، التدخل الدولي ودوره في اسقاط نظام القذافي، (مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، تخصص دراسات مغاربية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجمهورية الجزائرية، سنة 2012-2013)، ص: 124.

⁴³ للمزيد من التفاصيل حول التدخل الدولي في ليبيا راجع:

Phillippe Gros, De Odyssey Dawn a ' Unified Protector, Fondation pour la recherche stratégique note n° 04, 2011

⁴⁴ نفذت طائرات الحلف ما مجموعه (17939) طلعة جوية مسلحة في ليبيا بين 31 مارس 2011 و 31 أكتوبر 2011، تم في (17314) طلعة منها إستخدام طائرات ثابتة الجناحين، و(375) باستخدام الهليكوبتر و(250) بإستخدام مركبات جوية غير مأهولة أو طائرات بدون طيار، وكانت الضربات الجوية من نوعين متعمدة (مخطط لها مسبقاً)، وديناميكية (ضربات إنتهازية على الأهداف التي تظهر أثناء المهمة)، وكانت حملة الناتو الجوية في ليبيا الأولى في تاريخ الحلف التي تستخدم فيها ذخائر موجهة بدقة، كما إستخدام

2011/10/23، ثم قرار مجلس الأمن الدولي في 2011/10/27، تحت رقم 2016 القاضي بإلغاء القرار السابق رقم 1973 وإنهاء التدخل الدولي في ليبيا، ثم بعده قرار انتهاء عمليات الناتو في ليبيا في 2011/10/31⁴⁵.

ب. **التدخل من أجل دعم التغيير (البحرين نموذجاً):** لقد اتضح بالشكل الملموس الدور الغربي المباشر في الاطاحة بالنظام الليبي السابق، عبر التدخل العسكري، غير أن هذا لا يعني أن ذات الأسلوب يعمم على كافة محطات مسار الحراك العربي، ولا يعني أن الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية ستضحي بكافة الأنظمة الخليفة لها في المنطقة العربية، وهو الأمر الذي يتضح بجلاء في تجربة الحراك البحريني. الذي يمثل النموذج الخليجي وما يتميز به هذا الأخير من ارتفاع مؤشرات التبعية للغرب.

وفي هذا الصدد فإن إحدى أهم المحددات الأساسية للسلوك السياسي للأنظمة الخليجية، يكمن في استرضاء الدول الراعية امنيا، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، فالارتباط بين استمرارية هذه الأنظمة والتبعية الخارجية وثيق إلى درجة كبيرة. إذ لا تهم هذه الأنظمة باستمداد شرعيتها من الداخل بقدر اهتمامها باسترضاء الدول الأجنبية الحامية لها⁴⁶.

على غرار أغلبية اقطار المنطقة العربية شهدت المملكة البحرينية، حراكاً شعبياً، حيث تداعت عناصر شابة إلى الاحتجاج والمطالبة بالاصلاحات، وكانت البداية عبارة عن احتجاجات متفرقة قبل أن تنظم في اعتصام جماهري حاشد في دوار اللؤلؤة ورفعت خلاله شعارات تعبر عن المطالبة في اصلاحات دستورية، غير القمع الذي جوبه به هذا الاعتصام جعل المعتصمين يرفعون شعارات المطالبة باسقاط النظام⁴⁷.

بعد هذه الأحداث وفي 14 مارس 2011، تدخلت وحدات من القوات السعودية والإماراتية تحت راية "درع الجزيرة"⁴⁸ يبلغ تعدادها حوالي عشرة آلاف جندي، وخلف هذا التدخل عشرات الضحايا، والمعتقلين. وتم اعلان "حالة السلامة الوطنية"⁴⁹ وما رافقه من تعطيل للحقوق والحريات، وحالات التوقيف التي قاربت 3000 موقوف في بلد عدد مواطنيه لا يتجاوز 550 ألف نسمة⁵⁰.

رغم الانتهاكات التي ارتكبتها السلطات البحرينية في حق المحتجين، إلا أن إلbas هذا الحراك باللباس الطائفي وربط المحتجين بإيران، وكذا اعتبارات أخرى امتزج فيها الاقتصادي والجيوستراتيجي، جعل الغرب يتعامل مع هذه المخططة، بأسلوب آخر مغاير للنموذج الليبي، فقد عبرت الباحثة البريطانية في شؤون الشرق الأوسط "روزماري هوليس" أن بريطانيا لم تتعامل مع جميع الانتفاضات بالطريقة نفسها، وأنه ليس من مصلحتها الاضرار بأنظمة الحكم في الخليج⁵¹.

الحلف (7642) سلاح جو أرض جميعها موجهة بدقة، و(3644) موجهة بالليزر، و (2844) موجهة بنظام تحديد المواقع الجغرافية، و(1150) سلاح إطلاق مباشر موجه بدقة مثل "صواريخ هيلفاير" وأربعة أسلحة متنوعة موجهة بدقة، وأبلغ الحلف عن إطلاق قرابة (470) قذيفة من قبل سلاح البحرية.

Anthony Bell & David Witter, The Libyan Revolution: Escalation et intervention, United State of American, institute for the study of war, 2011 part 1/part2.

⁴⁵ زردومي علاء الدين، مرجع سابق، ص: 141.

⁴⁶ اسامة علي محمد عبد القادر، مقارنة الثورات العربية والمصالح الأجنبية، نموذج "سورية والبحرين"، (بحث لنيل شهادة الجدارة في علم الاجتماع السياسي، الجامعة اللبنانية، 2012/2013)، ص: 45، 46.

⁴⁷ اسامة علي محمد عبد القادر، مرجع سابق، ص: 52.

⁴⁸ قوة مشتركة لدولة مجلس التعاون الخليجي، تتولى الدفاع عن أي دولة خليجية في حالة تعرضها للتهديد خارجي.

⁴⁹ بمثابة حالة الطوارئ في البلدان الأخرى.

⁵⁰ راجع تقرير اللجنة البحرينية المستقلة لتقصي الحقائق، على الموقع: <http://www.bici.org.bh/index-2.html>

⁵¹ راجع أرشيف موقع قناة العالم الاخبارية، على الرابط التالي: <http://www.alalam.ir/news/1441328>

ما ينطبق على الموقف البريطاني، يكاد ينطبق على الموقف الأمريكي أو يزيد، فمن المعلوم أنها تمتلك قاعدة عسكرية برية وبحرية في الأراضي والمياه البحرينية، إضافة إلى تخوفاتها من النفوذ الإيراني على المنطقة النفطية، وفي هذا الصدد يقول الباحث الأمريكي "تيد جالين" أن ما يجري في البحرين له أهمية كبرى بالنسبة لأمريكا يتجاوز البحرين إلى المنطقة الإقليمية كلها، على اعتبار أن البحرين هي مركز الوجود الأمريكي في المنطقة بحكم وجود القاعدة الأمريكية، وأي اتساع لنطاق الاضطرابات فيها سيجعل أمريكا في موقف صعب يتعلق بإمكانية نقل قواعدها⁵².

هكذا اذن انتقل الغرب إلى فاعل متدخل في مسار الحراك العربي، خاصة في المحطة الليبية، والمحطة البحرينية وغيرهما من المحطات لكن بأساليب وسياسات مختلفة، فطريقة تعامله مع النموذج الليبي، كانت مغايرة تماماً لأسلوب الذي اعتمد مع الحراك البحريني، كما هو واضح مما سبق ذكره، غير أن هذا لا يعني أن الغرب يقتصر في تعامله مع الحراك العربي على الأسلوبين المذكورين فقط، بل ينوع في طرق وأساليب التعامل مع القضايا، وفقاً لمصالحه وما يضمن استمرارها.

ت. ما الخلاصات؟ تنوع اساليب التدخل الغربي في مسار الحراك العربي، بلغ أشده في المحطة السورية، التي شهدت ولا تزال تعقداً وتيهاً لا مثيل له في محطات الحراك العربي الأخرى، وشكل التدخل الدولي والغربي بالخصوص، خطأً جديداً وأسلوباً مغالفاً عن غيره من الأساليب المعتمدة في التجارب السابقة، وذلك مرده إلى حد كبير إلى تعارض مصالح القوى الكبرى حول سوريا، ودخول روسيا على الخط بدعم النظام السوري، وكذا قوى إقليمية من حجم إيران.

بالمقابل فإن المعسكر الغربي ظل منقسماً على نفسه، حيث ان الحماس الفرنسي الذي يمكن تفسيره بالحنين إلى الماضي الاستعماري، قابله تذبذب في الموقف الأمريكي والبريطاني، حتى في فترات الذروة التي هددت به هذه القوى بالتدخل العسكري. وهذا التذبذب في الموقف الغربي، واختياره اساليب التدخل المغايرة للأسلوبين السابقين، يمكن تفسيره بمجموعة من العوامل، كغياب بديل أفضل من النظام السوري الحالي، إضافة إلى اقتناع الغرب أن أحسن طريقة لتدمير سوريا وبأجناس الأتمان هي الاقتتال الداخلي والحرب الأهلية.

لا يزال الحراك السوري مفتوحاً على كافة الاحتمالات، والتدخل الغربي فيه مرشح لكافة التحولات كذلك، وهو ما يجعلنا نتجنب الغوص فيه، تجنباً لـ"التيه المنهجي" إن صح التعبير، غير أنه من المهم الإشارة إلى أن المحطة السورية من الحراك، وكون النظام السوري ظل يقدم نفسه لسنوات خلت أنه يجسد محور الممانعة والمقاومة في وجه الطغيان الغربي الدولي، ويرفض الهيمنة الأمريكية على المنطقة، جعل أطروحة "المؤامرة" تعود إلى الواجهة وجعلت البعض يصبغ الحراك الشعبي العربي بصبغة المؤامرة التي حيكت خيوطها في دهاليز المخابرات.

ان الجزم بكون الحراك العربي مؤامرة خارجية حيكت ضد المنطقة، في الكثير من التبخيس لتضحيات الشعوب التي قدموها في سبيل تغيير الأوضاع في بلدانهم، كما يحمل تهميشاً لباقي العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي كانت أسباباً في اندلاع شرارة الحراك. غير أنه بالمقابل أي انكار للدور الخارجي في مسار الحراك يحمل قصوراً في الرؤية وتغيباً للبعد الخارجي الذي يظل حاضر في جل الأزمات.

لقد أخذت القوى الامبريالية الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ومعها اسرائيل، حين خشيت فقدان مواقعها وإلحاق الأذى بمصالحها الحيوية في المنطقة العربية، أخذت تستعمل كل الاساليب التقليدية والمستحدثة لاحتواء هذه الانتفاضة الكبرى

⁵² تيد جالين، "الأزمة الجديدة في البحرين"، مجلة ناشيونال انترست الأمريكية، بتاريخ 2012/10/13. أوردته اسامة علي محمد عبد القادر، مراجع سابق، ص: 54.

والإمسك بمقودها وتحويلها عن مسارها الموضوعي المفترض في الإصلاح الديمقراطي والتغيير الوطني المنشود والانتقال بذلك إلى مسار آخر يُبقي ويحافظ على مصالحها ومواقفها السابقة، ولكن بأساليب غاية في التمويه والتقمص والخداع وركوب الموجة ظاهريا والإيحاء بأنها فعلا تريد لهذه الامة ان تتحرر من أنظمة الحكم المطلق وأن تنتقل الى الديمقراطية والعدالة الاجتماعية⁵³.

ان الحكام باستعمالهم الحل القمعي هم من فتح الباب على مصراعيه لتدخل القوى الاجنبية، حيث وضعوا الآلاف المؤلفة من الشعب الذين خرجوا بغفوية وطنية وحس صادق وأسلوب سلمي أمام خيارات صعبة. إذ هم لا يستطيعون العودة الى منازلهم وأعمالهم وحياتهم العادية بأمان بعيدا عن البطش والاعتقال والملاحقة، ولا يستطيعون الاستمرار في الاعتصامات والتظاهرات السلمية الى ما لانهاية بحيث يوصلهم هذا الحراك السلمي الى بلوغ اهدافهم النبيلة في الحرية والعدالة والمساواة. في نهاية الأمر فإن حالة اليأس سوف توصلهم لا محالة لطلب التدخل الاجنبي جهارا نهارا وهو ما قد يفقد ثورتهم شرعيتها الوطنية والثورية⁵⁴.

المحور الرابع: أقطار الحراك والمساعدة الغربية: في سبيل الافلات من شبك التبعية.

"الديموقراطية هي السبيل الأمثل لتحقيق الأمن والاستقرار والازدهار، والنماء المشترك والتقدم. لقد التقينا رؤساء حكومات كل من مصر وتونس، وقررنا إطلاق شراكة على المدى الطويل مع كل البلدان التي تختار تدشين انتقال ديمقراطي، وتكون في صالح المجتمعات المتسامحة. يتمثل هدفنا المشترك في السعي إلى بناء دولة الحق وإشراك المواطنين، وتشجيع الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية من أجل الاستجابة لتطلعات الشعوب. ولذلك تبيننا إعلاناً حول الربيع العربي⁵⁵".

من دياجة اعلان دوفيل مجموعة الثمانية 26-27 ماي 2011: شكل العامل الاقتصادي النقطة التي استغلتها القوى الدولية والإقليمية لتوجيه الحراك العربي الوجهة التي تخدم تدبراتها الإستراتيجية في الحال والمآل. وقد أبان الحراك عن ضعف الأداء الاقتصادي لكل أقطاره، الشيء الذي أعاق الإصلاحات التي باشرتها قوى التمكين التي أفرزها الحراك العربي. لذلك وجدت قوى الحراك نفسها أمام خيارين لا ثالث لهما: إما الاعتماد على المساعدات الغربية والمنظمات الدولية التابعة لها، وبالتالي تكريس المزيد من الهيمنة والتبعية وإجهاض مطمح التمكين والتحرر؛ وإما تسخير المقدرات الذاتية للوطن العربي لتحقيق تنمية اقتصادية كفيلة بتمكين الوطن العربي من مقومات مواجهة التخلف والتحرر من التبعية الاقتصادية. وتستلزم هكذا تنمية اقتصادية ضرورة الانخراط في مسار التكامل الاقتصادي، وأولوية عملية التحرر والنهضة الشاملة في مختلف مناحي الحياة، وقبل هذا وذاك تحرير جميع أرجاء الوطن العربي من الاحتلال والهيمنة.

1) الوضع الاقتصادي لأقطار الحراك.

في مطلع (سنة 2014) الذكرى الثالثة للانطلاق الحراك العربي ما زالت المنطقة العربية تعيش ثوراتها ضد الأنظمة السلطوية المطلقة في البلدان العربية، وسياساتها في المجال الاقتصادي والاجتماعي على الخصوص، إنه في الواقع حراك يكشف أن الاقصاء والتهميش

⁵³ رضا مومني، "الربيع العربي ثورة أم مؤامرة"، بوابة الحقيقة الدولية، على الرابط التالي: <http://www.factjo.com/pages/print2.aspx?id=785>

⁵⁴ رضا مومني، نفس المرجع.

⁵⁵ النص الأصلي:

«...La démocratie est la meilleure voie pour accéder à la paix, à la stabilité, à la prospérité, à une croissance partagée et au développement. Nous avons rencontré les Premiers Ministres de l'Égypte et de la Tunisie, et nous avons décidé de lancer un partenariat de long terme avec les pays qui choisissent de lancer une transition démocratique, et en faveur de sociétés tolérantes. Notre objectif commun est d'agir en faveur de l'état de droit et de l'implication des citoyens, et d'encourager les réformes économiques et sociales, afin de répondre aux aspirations des peuples. Nous avons adopté une déclaration sur les printemps arabes» PRÉAMBULE DE DÉCLARATION DU G8 DE DEAUVILLE. 26/27 MAI 2011.

الاجتماعيين والبعد الاقتصادي وما كانت تشهده الاقطار العربية من ارتفاع للبطالة، وتحكم مجموعات محدودة على خيارات البلدان الاقتصادية، كانت في مجموعها من أبرز ما جعل الشعوب العربية تتدافع إلى الاحتجاج والنزول إلى الشوارع والميادين.

وبعد مرور ثلاث سنوات على انطلاق هذا الحراك، وسقوط رؤوس الأنظمة في مجموعة من البلدان العربية، وصعود قوى سياسية كانت لعقود مقصية من ممارسة تدبير الشأن العام، لا يزال الوضع الاقتصادي العربي يعيش مجموعة من الصعوبات بل يزداد سوءاً، ويعصف بأحلام التنمية والقضاء على التخلف الاقتصادي⁵⁶.

لقد ارتفع سقف التوقعات والأمل لدى الشعوب العربية غداة سقوط رؤوس الأنظمة السابقة، وبرزت بقوة أمل تبني مشاريع التنمية والاقلاع الاقتصادي، غير أنه بالمقابل وبسبب هذه الثورات، أصبحت اقتصاديات بلدان الحراك تعاني وتكافح من أجل النمو. وتُشكّل الانكماشات الاقتصادية التي شهدتها كل بلد من هذه البلدان، والتي حدثت جزئياً بسبب مخاوف المستثمرين والسياح، تهديداً مستمراً لمسار هذه التحولات.

في مصر على سبيل المثال، انخفض معدل النمو من 7.2 بالمائة عام 2009 ليصل إلى ما يزيد قليلاً عن 1% في عام 2011، في حين تقلصت الاحتياطات الدولية من 36 مليار دولار أمريكي إلى 16 مليار دولار أمريكي. وهكذا لم يعد الصبر ممكناً وأخذت ترتفع الأصوات المناادية بـ "الاستقرار" المعهود في النظام السابق. وفي تونس كذلك، عانى الاقتصاد الذي يعتمد بشكل كبير على الاستثمار الأجنبي والسياحة بصورة مماثلة؛ فانكمش نموه إلى 1.8% في عام 2011⁵⁷.

ومن بين المؤشرات الاقتصادية التي تشير إلى عمق الأزمات التي تعاني منها دول الحراك العربي. مؤشر البطالة على سبيل المثال، حيث أنه ووفقاً لإحصاءات رسمية فإن هذه الأخيرة بلغت في سوريا 48 %، وفي اليمن 17.3 %، وفي تونس 16 %، وفي ليبيا 15 %، وفي مصر 13.5 %⁵⁸. وهكذا ساهمت البطالة المتفاقمة إلى جانب تناقص احتياطات النقد الأجنبي والديون المتزايدة إلى هشاشة ميزانية "المكاسب الثورية". وقد أدى الأداء الاقتصادي المتواضع، لحكومات الأقطار التي عرفت هذا الحراك على الرغم من حداثة انتخابها وقوة شعبيتها إلى أزمة توقعات⁵⁹.

في ظل بيئة عالية المخاطر، وأجواء مشحونة سياسياً كالتى تمر بها أقطار الحراك، انصرف تركيز القوى السياسية عن البحث في الحلول الاقتصادية، وانصب الاهتمام على الأجندات الحزبية، والمصالح السياسية، فضلاً عن تواضع أداء الحكومات التي تسلمت مقاليد التدبير. غير أنه يجدر التنبيه إلى أنه على الرغم من سوء الإدارة الاقتصادية لحكومات ما بعد الثورات، إلا أن جانباً كبيراً من المشكلات الاقتصادية يرجع إلى فساد الأنظمة السابقة، والتي قادت سياساتها الاقتصادية إلى ارتفاع معدلات البطالة وسوء الأحوال المعيشية⁶⁰.

وبالعودة إلى التقارير الاقتصادية الدولية كتقرير التنافسية الدولية فإننا نجد أن مصر مثلاً تراجعت 13 مركزاً عن العام السابق لتتبع في المركز (107) من أصل (144) دولة، بينما حلت ليبيا هي الأخرى في مرتبة ثانية بعد مصر (113) من أصل (144)، واليمن

⁵⁶ عبد الحافظ الصاوي، "الخيارات الاقتصادية الصعبة لدول الربيع العربي"، الجزيرة نت. على الرابط التالي:

<http://www.aljazeera.net/ebusiness/pages/afefa832-d903-44e6-b098-56e43566e45c>

⁵⁷ سلمان شيخ، وشادي حميد، "بين التدخل والمساعدة: سياسة الدعم الدولي في مصر وتونس وليبيا"، دراسة مشتركة بين برنامج العلاقات الأمريكية بالعالم الإسلامي، ومركز بروكسج بالدوحة، نوفمبر 2012، ص: 4.

⁵⁸ عبد الحافظ الصاوي، مرجع سابق.

⁵⁹ سلمان شيخ، وشادي حميد، مرجع سابق. ص: 5.

⁶⁰ محمد الحسين عبد المنعم، "الارتقاء للخارج: السياسات الاقتصادية " المتعثرة " في دول الربيع العربي"، منشورات المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية، على الرابط التالي:

<http://www.rcssmidest.org/>

في أدنى تصنيف مؤشر التنافسية، السالف الذكر، في المركز (140)، متقدمة على أربع بلدان فقط هي غينيا وهاييتي وسيراليون وبوروندي⁶¹.

أمام هذا الوضع الاقتصادي الصعب في البلدان العربية التي عرفت حراكاً أفضى إلى إسقاط رؤوس أنظمة شائخة، فإن البحث عن الحلول ليس بأمر الهين في ظل شح البدائل وتآكل البنيات الاقتصادية لهذه البلدان نتيجة سنوات من السياسات العرجاء للأنظمة السابقة. أضف إلى ذلك غياب تصورات واضحة للقوى السياسية التي امتلكت مقاليد الأمور في هذه البلدان بعد الحراك. وقصد تجاوز هذا الوضع وما يخلقه من تداعيات فإننا نجد أنفسنا أمام مجموعة من البدائل، أهمها الاعتماد الذاتي، والمساعدات الخارجية، وربما العودة إلى الأنماط السابقة التي اعتمدت قبل الحراك.

ث. بين التبعية والاستقلال: أي إقتصاد لأقطار الحراك.

أ. **الاعتماد الذاتي لبناء إقتصاد مستقل:** قد يبدو أن من المسلمات التي لا تقبل الجدل هو تطلع الشعوب العربية التي ثارت على أنظمتها السلطوية إلى بناء إقتصاد مستقل يحقق آمالها، وعلى الرغم من التحولات والأوضاع الصعبة التي يمر بها الحراك العربي، فإن هذا السيناريو لا يزال مطروحاً ومطلوباً بالخاص. ويتوقف بلوغ هذا الهدف على الحراك السياسي للمجموعات الثورية في الشارع، ومدى نجاحها في استرجاع الثورة ومواجهة الثورة المضادة، والعودة مرة أخرى لنقطة بدايات عام 2011 وما تبعها من المضي قدماً نحو مشروع تنموي حقيقي يقضي على المشكلات الاقتصادية⁶².

إن عنصر الزمن قد يطول أو يقصر قبل تحقيق النجاح على الثورات المضادة واسترجاع مشعل الربيع العربي من جديد، وهو ما سينتج عنه لا محالة استمرار تباطؤ معدلات النمو نتيجة لعدم الاستقرار السياسي. الأمر الذي قد لا يستسيغه رجل الشارع ويضج من تدهور الأوضاع الاقتصادية. وعندما يقدر للحراك العربي أن يعرف نجاحه ستكون له لاشك آثار إيجابية على المدى الطويل. من تبن حقيقي لمشروع تنموي يعبر عن ثورات الربيع العربي⁶³.

وعلى الطريق إلى مثل هذا التبنى المأمول فإن أي إجراءات اقتصادية قد تلجأ إليها الحكومات التي تتولى تدبير الشأن العام في البلدان التي شهدت الحراك العربي، يجب أن تراعي البعد الاجتماعي لأنه وبدون إحساس الطبقات الكادحة بالتغيير الإيجابي فإن أفضل الخطط الاقتصادية قد تسقط تحت وطأة الرفض الشعبي، وهو ما يتطلب قدراً كبيراً من الشفافية⁶⁴. وفي هذا الصدد فإن دور الدولة في بدايات التجربة التنموية لا بد أن لا يقتصر فقط على التوجيه أو الرقابة، بل إلى جانب ذلك لا بد من التواجد في المجالات الإنتاجية وتقديم الخدمات الاجتماعية في إطار من المعايير الاقتصادية التي تسمح بتقوية وخلق قطاع خاص وطني قوي، يمكنه يشارك في تحمل أعباء التنمية⁶⁵.

من جهة أخرى فإن نجاح أي تجربة تنموية رهين بمقدار المدخرات المحلية، حيث أن التجارب التي عرفها جنوب شرق آسيا مثلت المدخرات المحلية فيها المصدر الرئيس للتمويل، ليأتي الاستثمار الأجنبي المباشر بعد أن حققت هذه الدول نجاحاً في مشروعها

⁶¹ The Global Competitiveness Report (2012-2013), page, 13.

⁶² عبد الحافظ الصاوي، مرجع سابق.

⁶³ عبد الحافظ الصاوي، م.س.

⁶⁴ محمد الحسين عبد المنعم، م.س.

⁶⁵ عبد الحافظ الصاوي، نحو نموذج للتنمية بدول الربيع العربي، مرجع سابق.

التنموي. وذلك ما أهلها في توجيه الاستثمار الأجنبي وفقاً لأجندتها الوطنية للتنمية⁶⁶. وفي هذا السياق فإن حكومات أقطار الحراك العربي، يجب أن تعمل على تشجيع معدلات الادخار الوطني، من خلال ترشيد انفاقها وزيادة الإيرادات العامة.

إن أحد أهم الاشكالات التي لا تزال تعيق الاقتصاد العربي بشكل عام، واقتصاد اقطار الحراك بشكل خاص، هو انتشار ما يعرف باقتصاد الريع الذي يغذي استفادة مجموعة محدودة من عائدات تصدير المواد الأولية والخامة، ما يجعل الانتقال إلى المستقبل وتبني نموذج جديد رهين بالتحول من "الدولة الريعية" إلى "الدولة الإنتاجية" التي تضمن تكافؤ الفرص والمساواة بين المواطنين وعدم تجاهل أي فئة من فئات المجتمع⁶⁷.

بناءً على ما سبق وفي محاولة لرصد مسار أقطار الحراك على مستوى السياسات والاختيارات الاقتصادية، فإن الباحث يصطدم بكون الأمر (أي الرصد) سابق لأوانه على اعتبار أن الفترة الزمنية التي تلت سقوط رؤوس الانظمة السابقة هي فترة انتقالية صعبة تشهد تصارع واستقطاب قوي بين قوى "الردة" و"فلول" الانظمة السابقة، والنخب الجديدة التي تعاني من فقدان وحدة الصف والتصارع في ما بينها. فضلاً عن كون هذه الفترة الانتقالية الصعبة قصيرة زمنياً ويصعب بناء استنتاجات عامة على مؤشراتنا.

إذا كان مسار الحراك العربي في عموم محطاته يتسم بما سبق ذكره، من غياب استقرار سياسي وتمكين للنخب الجديدة، فإن المحطة المصرية رغم ما تعيشه من استقطاب حاد، فإنه يمكن اعتبارها "حالة دراسية"، على اعتبار أنها شهدت وصول نخب جديدة للحكم بلورت سياسات عامة تؤثر على "الرغبة" في تغيير بعض المظاهر التي طبعت الانظمة السابقة، رغم كون فترة سنة غير كافية لتقييم سياسات واختيارات معينة مهما كانت فعاليتها⁶⁸.

إن مجموعة من المعطيات التي سبق أن صدرت على جهات مصرية رسمية إبان فترة حكم الرئيس المصري "المعزول" تم تحويلها وتكذيبها وتبخيسها في الفترة التي تلت عزله من قبل العسكر، بغية انكار وإخفاء أي انجاز للرئيس "المعزول" وأي وجه إيجابي، والتركيز على اظهار سلبيات فترة حكمه والتضخيم منها تبريراً لعملية عزله. ولكن العودة إلى هذه المعطيات وإلى ما تم الاعلان عنه وقتها، يوحى بوجود محاولات لبناء اقتصاد مصري انتاجي، كدعم الفلاحين المصريين وإعفاء 45 ألف من المتعثرين منهم من الديون، وارتفاع معدل النمو الحقيقي للناتج المحلي خلال الأشهر التسعة الأولى من 2013 من 1.8% إلى 2.4%⁶⁹.

لقد عملت السلطات المصرية إبان حكم الرئيس "المعزول" على تشجيع الفلاحين المصريين لإنتاج القمح والسعي إلى تحقيق اكتفاء ذاتي في هذه المادة الأساسية في النمط الغذائي المصري والتي ظلت طيلة السنوات السابقة تستورد من جهات خارجية على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. وفي هذا الصدد صرح الرئيس المصري آنذاك "إننا نعتز ونفخر بأن إنتاجنا من القمح وصل إلى 9.5 مليون طن بزيادة 30 % علي العام الماضي"، وأضاف تشجيعاً للفلاحين المصريين على الانتاج "من أراد أن تكون له إرادة فلا بد أن ينتج غذاءه ودواءه وسلاحه"⁷⁰.

⁶⁶ عبد الحافظ الصاوي، نحو نموذج للتنمية بدول الربيع العربي، مرجع سابق.

⁶⁷ ابراهيم سيف، المقاربة المطلوبة للتنمية بعد "الربيع العربي"، معهد كارنيجي للشرق الأوسط، على الرابط التالي: <http://carnegie-mec.org/publications/?fa=51041>

⁶⁸ المقصود بفترة سنة، هي المدة التي تولى فيها الدكتور محمد مرسي رئاسة جمهورية مصر العربية، والتي تمتد ل 368 يوماً، من تاريخ انتخابه 24 يونيو 2012، إلى تاريخ "عزله" 3 يوليو 2013.

⁶⁹ إنجازات مرسي في عامه الأول، المصدر الجزيرة نت: <http://www.aljazeera.net/news/pages/7d735a4e-3ee2-41cc-9e9a-d1058d8af7af>

⁷⁰ كلمة الرئيس المصري "المعزول" بمناسبة عيد الحصاد 2013/05/15، جريدة الاهرام المصرية، الخميس 6 من رجب 1434 هـ 16 مايو 2013 السنة 137 العدد 46182.

ب. **الاعتماد على الخارج: الحل السهل وخطر التبعية:** يعتبر خيار الركون الى المساعدات الاقتصادية والمالية الأجنبية، والتي تقدمها بعض الدول الغربية الكبرى والمؤسسات المالية الدولية، إحدى الخيارات السهلة التي قد تلجأ اليها الحكومات التي تعاني من أزمات اقتصادية، كما هو حال البلدان العربية التي شهدت أحداث الحراك إن الصعوبات التي تعترض بناء نموذج اقتصادي "وطني" ومستقل كثيرة أبرزها ثقل الارث الذي تركته الأنظمة السابقة، وغياب تصورات واضحة للاقلاع، وغيرها من المشاكل التي سبقت الإشارة إليها أعلاه.

إن هذه الصعوبات تقابلها سهولة الحل "المغري" والقاضي باللجوء إلى المساعدات الخارجية، وتبني الصفات الجاهزة التي يملئها هذا الخارج دولاً ومؤسسات مالية. غير أن اللجوء إلى المساعدات والقروض الخارجية لمواجهة التعثر الاقتصادي الذي تواجهه دول الحراك العربي في مرحلة ما بعد سقوط الأنظمة السابقة، قد يكلف الأنظمة الجديدة تكاليف اجتماعية باهظة ويضع تلك البلدان في حالة الارتعاج، لاسيما في ظل غياب الشفافية حول اتفاقات القروض وعدم وضوح الرؤية الاقتصادية لكيفية زيادة الاستثمارات وسياسات العدالة الاجتماعية⁷¹.

إن الصفات الغربية لا تأخذ في الاعتبار حاجة اقتصادات هذه الدول لفترات انتقالية، والتخلي عن منظومة تعظيم الدين العام، وهكذا فإن سياسات المنظمات الدولية تجاه دول الحراك العربي تساوي بينها وبين بقية الدول ذات الاقتصاد المتعاني، ولا تراعي خصوصية كل دولة، ولكنها تقدم أجندات ثابتة، مع العلم بأن معالجة اقتصاد كل دولة لابد وأن تقتضي إجراءات تختلف عن الأخرى⁷².

إن الاستفادة من المساعدات الخارجية يمكن أن تكون أقل سوء في حال توفر خطط واستراتيجيات تنمية وطنية يتم التحرك وفقها دون الخضوع لأجندة المنظمات والدول المانحة. ولعله من الممكن الاستفادة من نموذج ماليزيا ودول مجموعة "البريكس" في حالة تبني دول الحراك العربي للتعاون معها عبر البحث عن مشاركات استثمارية وفق خططها التنموية الوطنية التي تعالج مشكلات التخلف الاقتصادي. وفي هذه الحالة فإن اللجوء للاستثمار الأجنبي، يمكن أن يكون وفق سياسات كثيفة العمل في المراحل الأولى لتخفيف حدة البطالة، واعتماد سياسات انتاجية تركز الاعتماد على الذات وتساعد على التصدير⁷³. على أساس تكامل اقتصادي عربي يخلق سوق داخلية كبيرة من جهة، ويعدل الميزان التجاري عبر توسيع الصادرات من السلع المصنفة من جهة أخرى.

في هذا السياق فإن المؤشرات التي يمكن التقاطها من خلال التجربة المصرية إبان حكم الرئيس "المعزول محمد مرسي"، توحى بوجود توجه نحو التعاون الاقتصادي العربي الاسلامي عبر مجموعة من الاتفاقيات مع بلدان عربية والاسلامية لضخ استثمارات في مصر. حيث عُقد اتفاق في السادس من سبتمبر 2012 مع دولة قطر لضخ استثمارات قدرها 18 مليار دولار في غضون 5 سنوات، من بينها 8 مليار دولار في مشروعات ضخمة لتوليد الطاقة، و10 مليارات لمشروع سياحي، كما عقد الرئيس المصري في 11 سبتمبر 2012 لقاءً مع وزير الصناعة والتجارة السعودي، وصادر على اثره توجيهات بضرورة تذليل العقبات أمام

⁷¹ محمد الحسين عبد المنعم، مرجع سابق.

⁷² عبد الحافظ الصاوي، **الخيارات الاقتصادية الصعبة لدول الربيع العربي**. مرجع سابق.

⁷³ عبد الحافظ الصاوي، **الخيارات الاقتصادية الصعبة لدول الربيع العربي**. م.س.

الاستثمارات السعودية⁷⁴. كما عقد اتفاق مع تركيا في اللقاء الذي عقده الرئيس مع وزير الخارجية التركي بتاريخ 17 سبتمبر 2012، على ضخ استثمارات تركية بحجم 2 مليار دولار في مصر⁷⁵.

إلى جانب هذه الاتفاقات التي كان الهدف منها ضخ الاستثمارات العربية والإسلامية في مصر، عقد الرئيس المصري "المعزول" لقاءً مع الرئيس السوداني، بحث خلاله قضايا الأمن الغذائي، وسرعة اتمام مزرعة مصر بالولايات الشمالية، ومزرعة الانتاج الحيواني، وزيادة الكميات المستوردة من اللحوم السودانية، فضلاً عن استكمال الطريق البري الرابط بين البلدين، وافتتاح فرع البنك الأهلي المصري بالسودان للتيسير على المستثمرين⁷⁶.

في مقابل هذا التوجه إلى التعاون الاقتصادي مع البلدان العربية والإسلامية، وقبول الاستثمارات الخارجية فإن السلطات المصرية الجديدة، كان لها موقفاً مختلفاً من المساعدات الخارجية والقروض التي تقدمها المؤسسات المالية الدولية والبلدان "المانحة"، حيث عبر الرئيس المصري في كلمته أمام "مبادرة كلينتون" في نيويورك، عن ذلك بالقول: "لا أحب ان أتحدث عن الاقتراض، ولكن من يأتي إلينا للاستثمار فمرحباً به"⁷⁷.

هكذا اذن وأمام صعوبة تحقيق الخيار الأول الذي يسعى الى بناء اقتصاد وطني مستقل، وخطورة الخيار الثاني الذي يهدد بالسقوط في شبك التبعية والارتكان إلى الخارج، لابد لأقطار الحراك العربي أن تتبنى خيار الاندماج الاقتصادي فيما بينها، خاصة أن هذه الأقطار يجمعها من الروابط الشيء الكثير والمهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أقطار الوطن العربي تتوفر على امكانيات تكامل اقتصادي هائلة، اعتباراً لتنوع الموارد من قطر إلى آخر. وبموازاة تنوع الاحتياجات حيث تعاني بعض الاقطار العربية من أزمة في الموارد الطاقية، فإن بلدان أخرى تعد من أكبر مصدري هذه المواد، وبالمقابل فإنه في الوقت الذي تفتقد فيه بعض هذه البلدان الى عمالة مؤهلة، ترتفع معدلات البطالة في صفوف الكوادر والفئات المتعلمة في بلدان أخرى.

ت. **المساعدات الغربية: محاولات لإعادة الإمسك والحفاظ على الهيمنة:** إن النظام الدولي الجديد الذي تلعب في الولايات المتحدة دور المهيمن، والقائد للمجموعة الغربية، يستعين بمجموعة من الآليات للحفاظ على هيمنته على مختلف مناطق العالم، وعلى رأس هذه الآليات، تتربع الآلية الاقتصادية التي تشكل أساساً من المنظمات والمؤسسات المالية والاقتصادية الدولية. هذه الآلية ليست وحيدة بكل تأكيد، غير أنها من أكثر آليات النظام الدولي الجديد فعالية، من حيث بسط الهيمنة والنفوذ، فلا يمكن تصور دولة خاضعة لهذا النفوذ اقتصادياً لا تكون خاضعة سياسياً.

إن الأقطار العربية قد اعتادت، منذ استقلالها على أن تستند في تنظيم شؤونها الاقتصادية والمالية على تطوير علاقاتها بالدول الأوروبية المستعمرة لها سابقاً أو صاحبة النفوذ فيها. و في مرحلة ثانية، وبعد تصفية آثار الاستعمار الأوروبي المباشر، فقد تمّ تغيير وجهة الاتكال إلى كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، ثم بعد سقوط الاتحاد السوفياتي عاد الاتكال على الدول الأوروبية إلى جانب الولايات المتحدة⁷⁸.

⁷⁴ التقرير الشهري لرئاسة الجمهورية(مصر)، سبتمبر 2012، ص: 11.

⁷⁵ التقرير الشهري لرئاسة الجمهورية(مصر)، مرجع سابق، ص: 13.

⁷⁶ التقرير الشهري لرئاسة الجمهورية(مصر)، مرجع سابق، ص: 13.

⁷⁷ التقرير الشهري لرئاسة الجمهورية(مصر)، مرجع سابق، ص: 26.

⁷⁸ جورج قرم، "المساعدات الاقتصادية لمصر وتونس: اصطلياد الثورات بشبك التبعية"، الجزيرة نت.

شكل هذا الوضع على مر السنين شبكة واسعة من النفوذ الاقتصادي والمالي، بالإضافة إلى النفوذ الثقافي والسياسي عبر المساعدات المقدمة إلى المنظمات العربية غير الحكومية (الحقوقية والتنموية ..)⁷⁹. غير أن اندلاع شرارة الحراك العربي جعل هذه الشبكة في مهب الريح أمام تصاعد المشاعر الوطنية خاصة في بعض الدول التي عانت طويلاً من "التدخل الأجنبي" مما جعلها ترفض مساعدات دولية حتى وإن كانت أنظمتها الاقتصادية متعثرة⁸⁰.

أمام هذه التغيرات التي تهدد نفوذ وهيمنة هذه القوى في أقطار الحراك، فإن قوى الهيمنة الغربية سارعت إلى تدارك الأمر واحتواءه في اجتماعات على مستوى القمة⁸¹. عبر التأكيد أنها إلى جانب الحراك العربي وستسعى إلى مساعدة أقطار الحراك بمنح مالية سخية⁸². غير أن هذه المساعدات المزمع تقديمها خاصة إلى كل من تونس ومصر، هي ذاتها التي كانت سبباً في تعاظم أداء التبعية والأداء الاقتصادي المقيّد الذي تعاني منه الاقتصادات العربية⁸³.

إن العودة إلى الفقرة التي أوردناها في مدخل هذا المحور والمقتبسة من دياجعة اعلان قمة دوفيل، والتي تتحدث عن شراكة جديدة مع الشعوب العربية، وتخصص لهذه الشراكة المزعومة اعلاناً خاصاً (عبر وثيقة تحتوي على 18 نقطة)، يتلخص في إطلاق شراكة كلية (Global) مع الشعوب العربية ويفترض أنها "مبنية على الأهداف المشتركة للمستقبل"، وتشمل كل دول المنطقة العربية، ابتداءً من مصر وتونس، بمشاركة الدول الأخرى في المنطقة، التي تعلن خيارها بالتحول إلى قيم الديمقراطية والحرية⁸⁴.

حسب الإعلان السابق فإن الشراكة المقررة ستهدف إلى تحقيق الإصلاحات الاقتصادية المطلوبة من أجل تحديث الاقتصاديات ودعم القطاع الخاص وإنشاء فرص العمل المطلوبة، وقد أدعي قادة مجموعة الثماني الكبار أنهم سيساعدون دول المنطقة في إقامة "مساحة سياسية لازدهار الديمقراطية والحرية"، وأنهم سيقدمون الدعم اللازم في هذا المجال، وبشكل خاص حرية التعبير، بما فيه الدور الحاسم لوسائل الإعلام والانترنت والحرية الدينية. كما تم تكليف هؤلاء القادة لوزارات الخارجية والمالية لدولهم بالقيام بمراقبة التطورات وتحديد أطر الشراكة هذه مع دول المنطقة⁸⁵.

1. ما الخلاصات؟ إن ما يمكن استنتاجه من خلال متابعة هذه المبادرات والقمم والاعلانات، هو اندفاع قيادات الدول الغربية في استيعاب وامتلاك الثورات العربية عبر وسائل قديمة جديدة تهدف إلى أن تكون هي من يقود ويوجه التغيرات الحاصلة في المنطقة، كما كان الحال منذ الاستقلال وإلى يومنا هذا⁸⁶، وذلك وفق مقاربة أبوية فوقية ذات مضمون وصائي آمر، يفرض "شراكات" من جانب واحد.

إن الاستفادة من التاريخ واستحضاره في هكذا لحظات أمر غاية في الأهمية، ولعل ما يتبادر إلى ذهن المتتبع للأوضاع الحالية التي تمر بها أقطار الحراك العربي، هو استحضار لحظة "الاستقلال الشكلي" عن الاستعمار الأوروبي. ورب سائل يسأل هل يعيد التاريخ نفسه؟ وهل ستتكرر الأحداث والأخطاء في المنطقة العربية دون أن تتمكن أقطارها من الإفلات من شبكات نفوذ الدول الغربية الكبرى أو التقليل من أتكالها على مساعداتها وتمويلاتها على الأقل؟

⁷⁹ جورج قزم، مرجع سابق.

⁸⁰ سلمان شيخ، وشادي حيد، مرجع سابق. ص: 5-6.

⁸¹ قمة دوفيل التي عقدتها دول مجموعة الثمانية G8 في فرنسا، ماي 2011.

⁸² PRÉAMBULE DE DÉCLARATION DU G8 DE DEAUVILLE. 26/27 MAI 2011. Art 2.

⁸³ جورج قزم، مرجع سابق.

⁸⁴ جرج قزم، م.س.

⁸⁵ جرج قزم، م.س.

⁸⁶ جرج قزم، م.س.

الإجابة على كل هذه التساؤلات رهين بالمسار الذي سيسلكه الحراك العربي في قادم محطاته، ومدى يقظة نخب وقوى التمكين، ووعيتها بحجم التحديات التي تلقىها المرحلة المقبلة من تاريخ الوطن العربي، والاستفادة من تقاليد وخبرة هذه الشعوب في مواجهة هذه التحديات. إن الحراك العربي إلى حدود الساعة كشف الستار وفضح زيف السياسات الغربية التي طالما تغنت بأناشيد الحرية والكرامة، كما فضح قوى الردة والعمالة من داخل الوطن العربي، ورغم حدة الاستقطاب السياسي ومحاولات خلط الأوراق التي يتعرض لها الشعب العربي في مختلف أقطاره فإن الصورة أصبحت تتضح أكثر فأكثر، والنوايا تنكشف بشكل جلي.

هكذا إذن فإن المستقبل العربي رهين بمدى نجاح قواه ونخبه في قيادة سفينته إلى بر الأمان خلال هذه المرحلة، وهذه القيادة لن تتأتى دون امتلاك بوصلة فكرية متينة تستند إلى خبرة هذه الأمة وتقاليدها، وعمقها الحضاري والتاريخي. إن الحصيلة الحالية لنخب وقوى التمكين التي وصلت إلى سدة تدبير الشأن العام في أقطار الحراك، لا يمكن اعتبارها مادة للتقييم تفادياً لتحميل هذه القوى ما لا طاقة لها به، فالحمل ثقيل والمنعرج عصيب، والتحديات كبيرة، ولما كان التغيير على مستوى الذي شهدته المنطقة العربية لا يمكن انتظار نتائجه في ظرف سنوات أو أشهر قليلة، فإن تقييم نتائج الحراك على مختلف المستويات أمر سابق لأوانه، ويبقى الممكن والمطلوب رصد المؤشرات من خلال سياسات النخب الجديدة، بغية التقويم والتوجيه والتنبيه.

خلاصة عامة: تمخض الحراك العربي عن مفارقة: من جهة تمت تعبئة قوى التمكين من خلال التركيبة العقائدية السياسية القائمة على تمثل القيم الجماعية الروحية من أجل إعادة الاعتبار للمواطن العربي وحفظ كرامته عن طريق تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية تستثمر بشكل سليم المقدرات العربية؛ ومن جهة ثانية افادت قوى الردة والفلول سريعا من صدمة بدايات الحراك، وتجنيدتها للإمكانيات المادية والخبرة الطويلة في المناورة، والإعتماد على الدعم الغربي، من أجل الإلتفاف على مطالب الشعب وتكريس الهيمنة الداخلية والخارجية.

إن استقرار واقع الحال يدفع في اتجاه القول بأن ثمة غموض يلف مآلات الحراك العربي، فلا شيء حسم لحد الآن وكل الاحتمالات واردة. لكن الثابت يبقى هو السعي الغربي لفرض الهيمنة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتكريس المزيد من التبعية بما يمكن القوى الإستعمارية من استنزاف الثروات العربية ومقدرات الأمة، وتشجيع النعرات القبلية والطائفية بما يعمق ويفاقم التجزئة والترهل في الجسد العربي، والغاية القصوى للإرادة الاستعمارية هي شرعنة الاحتلال الإسرائيلي وتدعيمه لإدامته باعتباره أداة الغرب في المنطقة.

ومادام الحراك العربي قد بدأ يعرف ارهاصات الوحدة من خلال وحدة البواعث، ووحدة المسار، ويؤمن كذلك بوحدة المآلات؛ فإن التمكين بما يحقق طموحات الأمة المجتمعية العربية رهين بتشبيك قوى الأمة على اساس من وحدة الرؤية، الهادفة إلى درء آفات التمكين من تفرق ووهن، وبناء أدوات الصراع والمدافعة على قاعدة المدركات الجماعية للأمة.

إن مواجهة التبعية ليست بالأمر الهين واليسير، نظراً لتحذر الهيمنة الغربية على الوطن العربي، وضعف النظام الاقليمي العربي، حيث ان المنطقة العربية على الرغم من الامكانية المادية والموقع الجيوسياسي، والميراث الثقافي والحضاري الهام فإنها ستظل عاجزة عن تحقيق اي تقدم في اتجاه الاندماج والوحدة، ما لم يتم تحديد الاولويات بشكل دقيق. فالمطلوب في المرحلة المقبلة تعزيز دولة المؤسسات، وتحديث المجتمعات وكسب الرهان التنموي على المستويات الداخلية. وفي ذات الوقت العمل على الحفاظ على أكبر قدر ممكن من التنسيق والتعاون بين الاقطار العربية خصوصاً في ما يتعلق بقضايا السياسات الخارجية وقضايا الأمن القومي العربي، باعتبارها قضايا المواجهة والتدافع.

إن المنطقة العربية أمام فرصة تاريخية إن عرفت نخبها كيف تقود المرحلة المقبلة من الحراك، حيث أن هذه المرحلة من الحراك ستكون مرحلة النخب والقوى السياسية لتظهر حكماتها، وتصنع توافقات وطنية أساسها العدالة الانتقالية والمصالحة الوطنية، لتحقيق انتقال سلس، بعيداً عن لغت الاقصاء والعنف السياسي. إن ضخامة التحديات التي تملئها المرحلة لا تمنع من وجود أفق جديد فتحه الحراك الشعبي العربي، بكسره حاجز الخوف، وعزمه الواضح على استرجاع قراره.

ان استرجاع الشعوب العربية لقرارها هو بدون شك نهاية التبعية، وبداية مواجهة الطغيان الدولي، بمعنى أن الطريق نحو مواجهة الطغيان يمر عبر انهاء التبعية، وانهاء التبعية يعني تغيير الأنظمة التابعة، ومواجهة قوى النكوص والردة، من داخل الوطن العربي، بالشكل الذي يؤدي إلى استرجاع هذه الشعوب للاستقلال ارادتها وقرارها. ويؤدي هذا في النهاية الى قدرتها على التدافع في الساحة الدولية إما مواجهةً أو تعاوناً ندياً.

لائحة المراجع:

• كتب:

1. شحاتة صيام، الفرعون والصراع الطبقي: من الدولة القائمة إلى الدولة التابعة، مصر العربية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2013.
2. حامد ربيع، نظرية الأمن القومي العربي، القاهرة، دار الموقف العربي، 1984.
3. عبد الوهاب لمسيحي، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار، منشورات الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة 2000.
4. سعيد الحسن (تحرير)، التحرر العربي والنظام الدولي، في ضوء التقرير الإستراتيجي العربي، مركز الدراسات والأبحاث مؤسسة خالد الحسن، 2010.
5. غالي شكري، الثورة المضادة في مصر، كتاب الأهالي رقم 15، سبتمبر 1987.
6. عادل حسين، الاقتصاد المصري من الاستقلال الى التبعية.
7. جورج قرقم، انفجار المشرق العربي.
8. مروان بشار، العربي الخفي وعود الثورات العربية ومخاطرها، ترجمة موسى الحالول، الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت، ومركز الجزيرة للدراسات- الدوحة، الطبعة الأولى، 2013.
9. أفاق الإصلاح السياسي في العالم العربي، مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان، سلسلة قضايا الإصلاح (26) القاهرة يوليو 2010.
10. محمود حيدر، ثورات قلقلة: مقارنة سوسيو-استراتيجية، للحراك العربي، منشورات مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 2012، بيروت لبنان.
11. لويد سي. جاردنر، مصر كما تريدها أمريكا: من صعود ناصر إلى سقوط مبارك، ترجمة فاطمة نصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر 2013.

• رسائل وأطاريح جامعية:

1. زردومي علاء الدين، التدخل الدولي ودوره في اسقاط نظام القذافي، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، تخصص دراسات مغربية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجمهورية الجزائرية، سنة 2012-2013.
2. اسامة علي محمد عبد القادر، مقارنة الثورات العربية والمصالح الأجنبية، نموذج "سورية والبحرين"، بحث لنيل شهادة الجدارة في علم الاجتماع السياسي، الجامعة اللبنانية، 2012/2013.

• وثائق وتقارير:

1. DÉCLARATION DU G8 DE DEAUVILLE. 26/27 MAI 2011.
2. The Global Competitiveness Report (2012-2013).
3. نص خطاب الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن:
Bush's inauguration speech, Full text, theguardian.com, Thursday 20 January 2005. Sur lien:
<http://www.theguardian.com/world/2005/jan/20/uselections2004.usa>
4. Human Rights Watch, World Report 2010 – Tunisia sur lien:
<http://www.refworld.org/cgi-bin/texis/vtx/rwmain?docid=4b586cdd7b>
5. موقع وزارة الخارجية الأمريكية على الرابط التالي:
<http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2004/03/20040309153329liameruoy0.5659906.html>
6. تقرير اللجنة البحرينية المستقلة لتقصي الحقائق، على الموقع:
<http://www.bici.org.bh/index-2.html>

• مقالات ودراسات:

1. سعيد الحسن، الخبرة العربية الحديثة في مقاومة الطغيان، "دراسة غير منشورة".
2. ف. غريغوريغوز الثالث، "لماذا أغفلت دراسات الشرق الأوسط الربيع العربي؟ خرافة استقرار الأنظمة الاستبدادية"، مجلة المستقبل العربي، ع 392، أكتوبر 2011.
3. برهان غليون، "الولادة الجديدة للعالم العربي"، مجلة الدراسات الفلسطينية، ع 86، ربيع 2011.
4. سلمان شيخ، وشادي حميد، "بين التدخل والمساعدة: سياسة الدعم الدولي في مصر وتونس وليبيا" دراسة مشتركة بين برنامج العلاقات الأمريكية بالعالم الإسلامي ومركز بروكنجز بالدوحة، نوفمبر 2012.
5. محمد الحسين عبد المنعم، الارتقاء للخارج: السياسات الاقتصادية "المتعثرة" في دول الربيع العربي، منشورات المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية.
6. عبد الحافظ الصاوي، نحو نموذج للتنمية بدول الربيع العربي، الجزيرة نت.
7. ابراهيم سيف، المقاربة المطلوبة للتنمية بعد «الربيع العربي»، معهد كارنيجي للشرق الأوسط.
8. جورج قرقم، المساعدات الاقتصادية لمصر وتونس: اصطيات الثورات بشباك التبعية، الجزيرة نت.
9. رضا مومني، الربيع العربي ثورة أم مؤامرة، بوابة الحقيقة الدولية.
10. عبد الحافظ الصاوي، الخيارات الاقتصادية الصعبة لدول الربيع العربي، الجزيرة نت.
11. Phillippe Gros, De Odyssey Dawn a' Unified Protector, Fonadtion pour la research stratégiq note n° 04, 2011.
12. Anthony Bell & David Witter, The Libyan Revolution: Escalation et intervention, United State of American, institute for the study of war, 2011 part 1/part2.

• أرشيف الصحف:

1. أرشيف موقع قناة العالم الاخبارية، على الرابط التالي: <http://www.alalam.ir/news/1441328>
2. أرشيف جريدة الأهرام المصرية، على الرابط التالي:
<http://gate.ahram.org.eg/UI/NewsContentPrint/13/71/35655.aspx>
3. Lexington: Was George Bush right? The Economist, Feb 3rd 2011, sur lien:
http://www.economist.com/node/18063852?story_id=18063852
4. The guardian.com, Monday 19 December 2011, sur lien:
<http://www.theguardian.com/commentisfree/2011/dec/19/arab-spring-seven-lessons-from-history>